الباب السابع

الباب السابع

في تحرِّيه في مأكله ومشربه وملبسه وأموره كلها، وضبط لسانه مما يشهد لورعه، حتَّى في الدُّعاء على مَنْ ظلمه، وسَعَةِ حلمه وصدره، وحُسنِ سياسته، والإغضاء عَنْ مَنْ يُؤذيه، لا سيما مع القدرة على الانتقام، بل يُحْسِنُ لمن أساء إليه، ويتجاوزُ عَنْ مَنْ قدَرَ عليه، وعدم سُرعة غضبه، ما لم يكن في حقِّ الله تعالى ورسوله ﷺ، وصبرِه على المِحَنِ والحوادث البدنيَّةِ والمالية، وعدم بثِّ ما عنده مِنْ ذلك، مما يدلُّ على كمالِ عقله ووقاره، وأنَّه غايةٌ في السماحة والسَّخاءِ والبَذْلِ، مع قصده إخفاءَ ذلك، وشفقتِه على خلق الله تعالى، وإحسانه للغُرباء، لا سيَّما أهل الحرمين، وابتكارِه لهم في أوقافهم المستجد والقدوم، مما كثُرَ التَّرحُّمُ عليه بسببه، وبرِّهِ لشيوخه وأبنائهم، بل بطلبته وأصحابه وخَدَمِه وذوي البيوتِ، وقيامه مع من يقع[1] في جائِحَةٍ منهم، ولو لم يقصِدْه، وسَتْرِه وصبرِه على الطلبة، وتفرده عن كافَّة أهلِ عصره لمزيد التبسط في عارية[2] الكُتب، ودلالته الطَّلبة على الشُّيوخ من غير كراهةٍ في ذلك، واستجلابِ الخواطر، وحُسْنِ عشرَتِه وتواضُعِه وانبساطِه، حتى يلعَبَ الشَّطرنج في النَّادر، وحلوِ مُحاضرته، وعَذْبِ مذاكرته، وذكره الحكايات اللَّطيفة والنوادر الظَّريفة، وإنشادِه الأشعارَ الهزليَّة الدالَّة على رِقَّةِ طبعه، وظَرْفِه ولطافَةِ ذاتِه الشَّريفة، ممَّا لا يزداد معه إلا هيبةً

---

(١) في (أ): «لم يقع»، خطأ.

(٢) في (أ): «رعاية».

وجلالةً واحتراماً ووقعاً في النُّفوس، ومحبَّةً في القُلوب، وعظيم رغبتِهِ في العِلْم والمذاكرة، وإثارةِ الفوائد، وكثرةِ أدبِه مع العُلماء المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين، إلى غير ذلك مِنَ التَّهجُّدِ وكثرةِ الصوم والتِّلاوة والتضَرُّع، وعيادة المرضى، وشهودِ الجنائز، والاعتقاد في الصَّالحين وزيارتهم وطلب الدعاء منهم، مع الإنكار على مَنْ يخرُجُ عَنِ القوانين الشَّرعية مِمَّن لم يعلم صلاحيَّته قبل ذلك، واتِّباع السُّنَّةِ في جميع أحواله، وشدة خوفه، وجمع العلم مع العمل، وبيانِ طريقته في تقضِّي أوقاته، وشيءٍ مِنْ وصفِه الأسنى ومناقبه الحُسْنَى.

أما تحريه في مأكله ومشربه:

فأمر مستفيض؛ بحيث إنَّ عياله أحضروا له شيئاً فأكله واستطابه، بناءً على أنه ممَّا جرت عادتُه بالأكل منه، وقبل تمام الأكل، ألقى الله تعالى في خاطره السُّؤال عنه، فذكروا له جهةً لا يحبُّ الأكلَ منها، فاستدعى بتَشْطٍ وقال: أفعل كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم استقاء ما في بطنه.

قلت: فأخرج يعقوبُ بن شيبة في «مسنده» من طريق نُبَيْح العَنَزِي، عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه، قال: كنا ننزل رفاقاً، فنزلتُ في رفقة فيها أبو بكر رضي الله عنه على أهلِ أبياتٍ فيها امرأةٌ حبلى، ومعنا رجلٌ، فقال لها: أيسُرُّكِ أن تلدي ذكراً؟ قالت: نعم، فسجَعَ لها أسجاعاً، فأعطته شاةً، فذبحها وجلسنا نأكل، فلمَّا علمَ أبو بكر رضي الله عنه بالقصَّة، قام فتقيأ كلَّ شيءٍ أكلَ.

وأخرج البخاريُّ مِنْ حديث يحيى بن سعيد، عن[1] عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان لأبي بكر رضي الله عنه غلامٌ يُخْرِجُ له الخراجَ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يأكلُ مِنْ خراجه، فجاء يوماً بشيءٍ، فأكل منه أبو بكر رضي الله عنه، فقال له

---

(١) في (ب): «من»، تحريف.

الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال: أبو بكر رضي الله عنه: وما هو؟ قال: كنتُ تكهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهلية، وما أُحْسِنُ الكهانة، إلا أنّي خدعتُه، فلقِيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر رضي الله عنه يده، فقاء كلَّ شيء في بطنه.

ووقع لأبي بكر رضي الله عنه مع النُّعَيْمان بن عمرو الصحابي المشهور ذلك أيضاً؛ قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، قال[1]: إنَّ ناساً مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ نزلوا بنا، فكان النُّعَيْمان بنُ عمرو يقول لأهل الماء يكونُ كذا وكذا، فيأتونه[2] باللَّبن والطَّعام، فيرسِلُه إلى أصحابه، فبلغ أبا بكرٍ رضي الله عنه خبرُه، فقال: أراني آكُلُ مِنْ كهَانَةِ النُّعيمان منذُ اليوم، فاستقاء ما في بطنه.

وفي «الورع» لأحمد عن إسماعيل، عن أيُّوب، عن ابنِ سيرين، قال: لم أعلم[3] أحداً استقاء مِنْ طعام غيرَ أبي بكر رضي الله عنه، فإنَّه أُتي بطعام فأكل، ثمَّ قيل له: جاء بهِ النُّعَيْمان. قال: فأطعمتموني[4] كهانة النُّعَيْمان؟ ثمَّ استقاءَ. ورجالُه ثقاتٌ، لكنه مرسل.

وفي «الأطعمة» لعثمان الدارمي مِنْ حديث مرَّة الطَّيب، عن زيد بن أرقم، قال: كنا قعوداً عند أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، إذ أتاه غلامٌ له بطعام، فأهوى إلى لُقمة فأكلها، فقال له الغلام: يا أبا بكر، كنتَ تسألُني كلَّ يوم: مِنْ أينَ جئتَ به، ومِنْ أين اكتسبته، وإنك لم تَسْألني اليوم. قال: ويحكَ، ما حملني عليه إلاَّ الجُوعُ، ومِنْ أينَ اكتسبته؟ قال: كنتُ رقيتُ لقوم في الجاهلية، فوعدوني عليه عِدَةً، وإني درت اليومَ، فلم أُصِبْ شيئاً، فمرَّرْتُ بهم وعندهم وليمةٌ لهم، فقلت لهم: عِدَتي الَّتي وعدتُموني في

---

(١) ساقطة من (ب، ط).

(٢) في (ب): «فيأتون».

(٣) ساقطة من (ب).

(٤) في (ب): «فأطعموني»، خطأ.

الجاهلية، فأطعموني[1] هذا الطعام، فقال: ويحك، ألا أراكَ أطعمتني مما حرَّم الله ورسوله؟ ثمَّ أدخلَ أُصبعه في فيه، ثم تقايأ، فرمى بها، فقال له جُلساؤه: يا أبا بكر، ما بلغ الله بهذه اللُّقمة؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أيُّما لحمٍ نبتَ مِنْ حرامٍ، فالنَّارُ أولى به».

وإنما اقتصر شيخنا على ذكر السيد أبي بكر الصديق في ذلك لشهرته، وإلا فالسَّيِّدُ عمرُ أيضاً وقع له مثلُ ذلك. روى مالكٌ في «الموطأ» عن زيد بن أسلم أنه قال: شربَ عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه لبناً فأعجبه، فسأل الذي سقاه: مِنْ أينَ هذا اللَّبنُ، فأخبره أنَّه ورد على ماءٍ قد سمَّاه، وإذا نَعَمٌ من نَعَم الصَّدقة وهم يسقُون، فحلبوا لي مِنْ ألبانها، فجعلتُه في سقائي، فهو هذا، فأدخل عمرُ يده في فيه، فاستقاءه.

بل اتفق لهما معاً ـ أعني أبا بكر وعمر ـ وهما في غزوة ذاتِ السَّلاسلِ أنَّ عوفاً مرَّ بقوم وهم على جزور، قد نحروها وهم لا يقدِرُون على أن يفصِلُوها، وكان امرؤٌ جازِرَاً، فقال لهم: تعطُوني منها عشيراً على أن أقسِمَها بينكم، فقالوا: نعم، فأخذ الشَّفرتين، وجزَّأها مكانه، وأخذَ جزءه، فحمله إلى أصحابه فأكلوا، وقال الشَّيخان له: أنَّى لك هذا اللَّحمُ يا عوفُ، فأخبرهما، فقالا: لا والله ما أحسنتَ حينَ أطعمتنا هذا، ثم قاما يتقيآن ما في بطُونهما منه، فلما رجعُوا مِنْ ذلك السَّفَرِ، كان عوفٌ أوَّلَ قادم، فسلَّم عليه، فقال له النبي ﷺ: «عوف بن مالك»؟ فقلت: نعم بأبي أنتَ وأمي، فقال: «صاحبُ الجزور»؟ لم يزده على ذلك شيئاً. وحاصِلُه أنه ﷺ أخبرَه بذلك قبل أن يخبره عوفٌ به، وكذا أورد البيهقي القصَّة في «الدلائل». انتهى.

ورأيته يوماً في بعض إراحاته مِنَ القضاء، وقد وُضِعَ على خُوانه صحنُ عِنَبٍ، فأخذ عنبةً منها، وهمَّ بوضعها في فيه، ثمَّ بدا له، فاستدعى ببعضِ الفتيان، فسأله: مِنْ أينَ هذا العنبُ؟ فقال: مِنْ جهة كذا، فتغيظ وقال: أنا ما قلتُ لك لا تحضِرْ لي شيئاً مِنْ هذا؟

---

(١) في (أ): «فأعطوني»، والمثبت من خط المصنف في هامش (ب، ح).

وكان لا يتناول مما يُهدى لبيته شيئاً، بل ما كنت أظنُّ به الاطلاع على شيءٍ مِنْ ذلك، وطالما كان يُرسل مَنْ يشتري له مِنَ السُّوق ما لعلَّه يكونُ عندَ أهله.

ونحو ذلك أنَّه كان إذا اضطر إلى الحضور في الولائم والمهمَّات ونحوها ممَّا الغالب على أربابها عدمُ التَّوقِّي، يُوهِم أنَّه يأكل، بل ربما أعطى هذا وهذا ممَّن يكونُ جالساً على السِّماط مِنَ الأتباع ونحوهِم مما بين يديه على الطَّريقة المألوفة في ذلك، بحيثُ يُسَرُّ صاحبُ المهِمِّ غالباً، ولا يدخل في جوفه مِنْ ذلك شيئاً ألبتة.

ولقد قرأتُ بخطِّ بعضِ الأعيان مِنَ الحلبيين ـ كما تقدَّم في الباب الثاني[1] ـ أنه لمَّا كانَ بحلب صُحْبَةَ السُّلطان كان له راتِبٌ لحمٍ يُؤتى إليه به كلَّ يومٍ، قال: فكان لا يأكله، بل[2] يشتري له غيره.

وكان يتعفَّف ـ فيما بلغني ـ عن تعاطي معلوم الخطابة بالقلعة أيَّامَ قضائه، وهو أربعمائة درهم في كلِّ شهرٍ، لضَعْفِ الوقف، وراموا إجراءَ السَّفطِيِّ على ذلك، فلم يوافق، بل قال: هذا المعلومُ لكوني أُباشِرُ الوظيفةَ بنفسي أجعله مما أتقوَّتُه.

وكذا كان ما يصِلُه مِنَ الضَّحايا وشِبْهها يوزِّعُ ما لا يرتضيه منها لجماعته، فما يكونُ مِنْ جهةِ الصَّاحب كريم الدين كاتب المناخات لأمِّ أولاده، وما يكونُ مِنْ جهة الزَّيني الاستادار لولده، وما يكون مِنْ جهة السُّلطان ـ وكان الظَّاهِرُ يخصُّه بإرسال قَدْرٍ زائد عَنْ رفقته ـ يفرِّقه أجزاءً، إلى غير ذلك ممَّا يحرِصُ على عدم تعاطي أكلِ شيءٍ منه. نعم، بلغني أنَّه كان يأكل مما يرسل به إليه أميرُ المؤمنين في رمضان.

ولم يزل يتَّجِر إلى أن مات، وضاع له الكثير مع وكلائه، كالشَّمس الزَّركشي، حسبما أشرتُ لقصته معه في الباب الثالث، وكالفقيه محب الدِّين بن الحمِّصاني السُّكَّري الذي كان يؤدِّبُ الأطفال بالمسجد المجاور

---

(١) ١/٣٢٢.

(٢) في (ط): «وكان».

للمدرسة الشريفيَّة البهائية، فإنَّه دفع له مالاً كبيراً، لكونه كان ماهراً في طبخ السُّكَّر، فأفسده عَنْ آخره، وهدَّده صاحبُ التَّرجمة بإحضارِ الوالي إليه ونحو ذلك؛ لتوهُّمه أنه أخفى المالَ، ومع ذلك، فما أفاد، فأعرض عنه، وسافرَ المذكورُ إلى بلاد اليمن، فقيل: إنه أظهر تموُّلَه هناك.

وجيء له بشخص ممَّن أخذ له مالاً، وقد أمر بعضَ القُضاة حينَ ادَّعى عليه وكيلُه بسجنه بسببه، فأشار لبعض مَنْ كان بين يديه إشارةً خفيَّة أن يشَفَعَ فيه، ففعل الرَّجُلُ، فأجابه لذلك، وأمر بإطلاقه، فقيل له: فلِمَ أمرت بشكواه؟ فقال: إنني قد شربتُ ماءَ زمزم أنَّ الله يصرِفُ عنِّي حُبَّ المالِ، ولكني أخشى أن يطمع النَّاسُ في مالي، فيكونُ ذلك إضاعةً للمال.

ونحوه إظهارُ التَّحريض على كاتب الغيبة في الخانقاه البيبرسية، للخوف مِنْ طمَعِهم في التَّمادي على عدم الحضور، وإلا فقد كان يقولُ له سرًّا: إذا رأيتَ شخصاً بالبياطرة أو نحوها من الجهة الأخرى قاصداً المجيء ليحضر وسبق، فلا تكتب عليه غيبة. وأين هذا ممن يأمر عند فراغه من القراءة أو قُبيلها بقفل باب المدرسة، بحيث مَنْ يجيء مِنَ الصُّوفية حينئذٍ لا يتمكَّن مِنَ الدخول، وتكتب عليه الغيبة. وممَّن كان وكيله في ذلك فخرُ الدِّين بن دويم الآتي ذكرُه في وصيَّته مِنَ الباب التاسع. وزعم أنَّه كان يقول له: أنت الفجرُ الصَّادق، وفلانٌ ـ ويعيِّنُ بعضَ نُوَّابه ـ الفجرُ الكاذب. وما أظنُّه ـ إن صحَّ وصفُه للأولِ بذلك ـ كان يريد إلاّ التَّفاؤل به، وإلا فقد رأيت بعضَ معتَبَري أهلِ مكَّة دوَّن عنه حكايةً عزاها لصاحبِ التَّرجمة لا شكَّ عندي في اختلاقه لها، أو اختلاقه لعزوها إليه[1]، إن كانت الحكايةُ قديمة، عفا الله عنهما وإيانا.

وقد راج أمرُ الفخرِ المذكور في دُنياه وأثرى، ببركة موكِّله، جرياً على عادَةِ مَنْ ينتمي إليه، بحيث كان الكثير منهم يعتَرِفُ بذلك، فحكى لي التاجرُ بدرُ الدِّين حسن بن علي المرجُوشي جارُنا، وكان مِنَ الخيار الثِّقات، سمِعَ الحديثَ على صاحبِ التَّرجمة، قال: ألزمني الأميرُ جمال الدين

(١) ساقطة من (ب).

الأستادار أخذَ صِنْفٍ مِنَ القماش كان قد كَسَدَ عندَ صاحِبِ التَّرجمة، وأن يُنْظِرَني في ثمنه إلى وقتِ كذا. قال: ففعلتُ ذلك مع شدَّة كراهيتي فيه، لكنه لم يسعني المخالفة، فلما استقرَّ القماشُ عندي، وكان من شعار الحريم السُّلطاني وشِبْهِهِنَّ في الأفراح ونحوها، طرأ لهن ما يقتضي طلبه، فما مضت أيامٌ قلائلُ حتَّى بِعْتُ ذلك القماشَ قبلَ حُلول الأجلِ بأكرم ربح، فعَدَدتُ ذلك مِنْ بركته.

وكانت ـ كما بلغني ـ وظائِفُه التي يباشرها يتحرَّى منها ما كان أقرب إلى الحِلِّ مع مُرَتَّبه في الجوالي، وهو في كلِّ يوم مائةُ درهم، بل زيد في بعض عزلاته الأخيرة، وصار ديناراً أو مثقالاً، فيبدأ بالأكل منه، وكذا التَّصَدُّق، ثم يليه اللُّبس، ثم كذا، إلى آخر ضَرُوراته، ويميِّزُ المعاليمَ بعضها مِنْ بعضٍ بالإشارة بنُقْطةٍ أو نقطتين ونحو ذلك.

وقد رأيتُه يُعطي خادِمَه الشيخ شمس الدين بن قُريش ما يشتري له به شيئاً مِنَ المأكول، ويُوصيه أن لا يكلِّفَ البائعَ لأكثرَ ممَّا يعطيه باختياره، وقس على ذلك في أموره كلِّها، لا سيَّما نقلُ العِلْم وروايته، فكان غايةً في التَّحريِّ في ذلك، يدلُّك على هذا أنَّ النجم المُرَجاني ذكر له أنَّ الجمالَ إبراهيم بن محمد الأميوطي كان حاضراً ختم «الصحيح» عند النشاوري، إذ قُرِئَ عليه، وأنَّه أجازَ للحاضرين. قال: فلم تَطِبْ نفسي مِنْ أجل الشَّكِّ في حضوري يومَ الخَتْم الذي حضر فيه الأميوطي أن أُخرِّج عنه، وإن غلب على الظَّنِّ حُصولُ الإجَازة لي منه.

ومن ذلك أنَّ الشيخ مدْين رحمه الله حضر عندَ شيخِنا في خِتان حفيده، فسأله عن حديث «حسِّنوا نوافلكم، فإنَّ بها تكمُل فرائِضَكم»، فقال شيخنا: لا أستحضره، فقال له الشَّيخُ: إنَّه قد عزاه الفاكهاني لابن عبد البر في بعض تصانيفه، فقال شيخنا: يمكن، ولكن لا أعرفه الآن.

قلت: وللدَّيلمي في حديث عبد الله بن يرفا اللَّيثي عن أبيه، عن جده، رفعه: «النَّافلة هديَّةُ المؤمن إلى ربِّه، فليُحْسِنْ أحدُكم هديَّته وليطيِّبْهَا».

وسأله بعض الحنفيَّة عن عِدَّة مَنْ لقي أبو حنيفة رحمه الله مِنَ الصَّحابة رضي الله عنهم، فقال: أنسٌ فقط، قال السَّائل: فقلت له: إنَّ علماءنا بلغوا بهم سبعةً أو أربعةَ عشر، فقال: مَنْ يقدِرُ ينازِعُكم وأنتم أصحابُ السَّيف والرُّمح والخُوذة؟! والذي أعرفه ما قلتُه لك.

واتفق أنَّ الفاضل عزَّ الدين عبد العزيز بن محمد الوفائي الميقاتي شَهِدَ عندَه في هلالِ رمضان، فقال له: أعن رؤيةٍ أم عَنْ حسابٍ؟ فقال: عَنْ رُؤية، فأمضى شهادته.

والتمس منه الشَّيخ محمد بن صالح الصَّالح الشهير الحضورَ في عَقْدِ ابنته، وكانَ في رمضان سنة وفاته، والمتولي للقضاء إذ ذاك كان غيره، وعُدَّ ذلك في عليِّ مقامه، فلما حضر: قال: من يعقد، فقيل له: أبوها، فتوقَّف في ذلك ورعاً واحتياطاً، لكونه شِبْهَ المجذوبِ، فقال بعض مَنْ حضر مِنَ العلماء: بل هو عاقل، فقال للقائل: إن كان عاقلاً، فأنتَ العاقِدُ.

ومن ورعه أنه كان يضم قُلامَةَ الأقلام، ثمَّ يجعلُها في بَطْنِ دواته إلى أن تُرمى، لكونه يكتُب بها الحديثَ والعلمَ، ويقول على سبيل المماجنة: مَنْ داسَ عليها دخل السجنَ!

ومن هنا يُعلم بطلان ما بلغني أنه نُسب إليه في الكتب، وكيف يليق أن يَفُوه مَنْ له أدنى مُسكةٌ بشيءٍ مِنْ ذلك، وقد روينا في جزء من حديث أبي رفاعة عمارة بن وثيمة، أنَّه قال: قال لي أبو الربيع سليمان بن أبي طيبة: نهانا أشهبُ عَنْ تخطِّي الكتُب التي فيها حديثُ رسول الله ﷺ.

وكذا من ورعه ووفور ديانته أنه أفرز قبل موته ما عنده مِنْ كتب الأوقاف التي لها مقرَّةٌ، وكذا ما لا مقرَّةَ لها، وأشار بعَوْدِ كل ذي مقرٍّ إلى موضعه، وما عدا ذلك، فيُقسَمُ بين طلبته، فما وفَوْا له بذلك، وهذا أوَّلُ شيءٍ أساؤوا التَّصَرُّفَ فيه بعد وفاته، لكنه رحمه الله اجتهد في عَوْدِها بعد مماته بحسب الإمكان. وكان يرى أن بقاءها عنده غيرُ ممتنع؛ لانتفاعه والمسلمين بها، بل كثيراً ما كان يعيرها لمن يلتمسها منه. ولقد قال الظاهر جقمق: والله إنه كان جديراً بإبقاء كتب الأوقاف عنده، وأنا ممَّنِ استعارَ منِّي

مِنْ كتبِ الخانقاه إذ كنت ناظراً عليها، أو كما قال.

ومن تحرِّيه أنه أملى في تخريج «الأذكار» الحديث المسلسل بالمحبة، فالتمس منه الجماعة إيصال[1] التسلسل بقوله، فتوقف حتى أدار نظره إليهم، ثم قال بعد أن سكت سكتة: والله إني أحبكم، فقولوا، ثمَّ قال لهم بعد ذلك ممَّا كتبوه عنه في أصل المجلس ما نصه: ومِنْ لطيف ما وقع في هذه السلسلة: ما حدَّثنا شيخُنا إمامُ الحفاظ أبو الفضل بنُ الحسين رحمه الله، قال: سمعنا هذا الحديث على الشَّيخ فخر الدين النُّوَيْري، وكان غايةً في الورع، فلمَّا وصَلَتِ السِّلسِلَةُ إليه، سألناه أن يقول لنا، فسكت، فأعدنا، فقال: ما أعرِفُكم، فتعرَّفنا إليه، إلى أن قال. رحمهم الله تعالى.

وأما ضبط لسانه:

فأمرٌ لا يُوصَفُ، لكن عنوانه أنَّ بعض الحُسَّاد زَعَمَ أنه تعقَّب عليه في تصنيفِ جمعه ما وقع في «معجم» صاحب الترجمة، وبالغ في ذكر ألفاظ لا يقابله عليها إلا الذي أنطقه بها، واطَّلعَ صاحبُ الترجمة على ذلك، فكتب عليه ما نصُّه: لا شكوى إلا إلى الله، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله، وحسبُنا الله. اشتمل هذا التَّصنيفُ على نِسْبَةِ مصنِّفِ الأصلِ إلى أشياءَ نسبة المعترض عليه إليها[2] لا تجتَمِعَ في آدميٍّ فيما يغلِبُ على الظَّنِّ، فللَّهِ الأمرُ.

قلت: ثم سردها شيخُنا بخطِّه، وهي نحوُ خمسين صفة خارجة عَنِ السَّبِّ والدعاء عليه، وكذا سبّ ولده والدُّعاء عليه مما لا أستبيحُ ذكرَه، ومع ذلك فلم يَزِدْ على قوله: الحمدُ لله على كلِّ حال، والله المستعان. حصل الجوابُ بعونِ الله تعالى عَنْ جميع ما ذكر فيه مِنَ الاعتراضاتِ مِنْ غير تعرُّضٍ للفظةٍ فاحشةٍ، ولا كلمة سوءٍ، ولا تشاغُلٍ بردِّها، بل الأمرُ فيها موكولٌ إلى مَنْ يجازي المُسيءَ، ولا يضيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً. انتهى.

---

(١) في (ب، ط): «فالتمسوا منه إيصال...».

(٢) في (أ): «إليه».

فتضمنت هذه الحكايةُ ضبطه للسانه، وأنّه إليه النهاية في الحلم والاحتمالِ والتحرُّزِ مِنَ الدُّعاء على مَنْ ظلمه، عملاً بقوله ﷺ: «مَنْ دعا على مَنْ ظلمه، فقد انتصَر»، مع أنّه ممّن لا أشكُّ في إجابة دعوته، لا سيما وقد أخبرني بعضُ الثّقات من طلبة[1] شيخنا أنّه سمع الشَّيخَ الصالح العارف أبا الفتح محمد بن أحمد الفُوّي حينَ التمس منه في[2] بعض الحوادثِ التي جرت لصاحبِ التَّرجمة التوجُّهَ إلى الله تعالى في مَنْ يعتَمِدُ أذيَّته والتَّشويش عليه بقوله: والله لو توجَّه هو فيهم إلى الله تعالى في ليلة، لكُفِي أمرهم، لأنَّ عَلَمَ الولاية على رأسه. انتهى.

وذكر لي أبو المواهب المغربي، الشهير بابن زغدان، قال: سمعت قائلاً يقول في المنام: إذا كانت لك إلى الله حاجة، فتوسل بابن حجر ثلاث مرات، فإن الله يقضي حاجتك[3].

وحكى لي الشيخ بهاء الدين بن حرمي، أحدُ جماعة صاحب الترجمة، قال: كنت إذا عرض لي أمر، أذكره له، رجاءَ بركتِه والتماس مساعدته، فلمَّا مات، عَرَضَ لي عارضٌ، فجئتُ الشَّيخَ شهابَ الدِّينِ الأبشيطي العالمَ الصَّالح، فذكرتُ له ذلك، فقال لي: توجَّه إلى الله بشيخك، وأشار إلى صاحب الترجمة، يقضي الله حاجتك، وذكر له كيفيَّة ما يفعلُ[4].

وحكى لي صاحبنا الشيخ فخر الدين عثمان الدِّيمي الأزهري عن بعض الثقات أنه سمع الكمال المجذوب يقول: إنَّ صاحب الترجمة ما مات حتى تقطَّب.

---

(١) في (أ): «طبقة».

(٢) ساقطة من (أ).

(٣) غنيٌّ عن القول أنه لا يجوز التوسل بأحد من مخلوقات الله في طلب قضاء الحاجات أو التماس إجابة الدعاء، فندعوه سبحانه من دون واسطة ولا وسيلة.
وقائل هذه العبارة ـ ابن زغدان ـ هو محمد بن أحمد بن داود بن سلامة، من أرباب أهل التصوف. ترجمه المصنف في الضوء اللامع ٧/ ٦٦ ـ ٦٧، فقال فيه: فهم كلام الصوفية، ومال إلى كلام ابن عربي بحيث اشتهر بالمناضلة عنه.

(٤) ويقال في هذا ما قيل في سابقه.

ووراء كونِه لم يدع رتبةً أرفع منها، وهو منعه مَنْ يفعلُ ذلك مِنْ طلبته، كما أخبرني الشَّيخُ البدر أبو علي حسن بن علي الدِّماطي الضَّرير وهو مِنْ طلبته، أنَّ صاحبَ التَّرجمة سمعه وهو يدعو على مَنْ يروم مَساءته فمنعه مِنْ ذلك، وقال: سلِ الله أن يكفيني أمرَهم.

ونحوه مما شاهدتُه: أنَّ بعضهم حضر إليه وهو مسرورٌ، وأخبره بإدخالِ بعضِ مَنْ ناوأه حبسَ ذوي الجرائم، فتغيَّظ على المخبِرِ، وقال: إنَّما يفرَحُ بهذا فاسقٌ مِنْ أجل تلبُّسه بهذا المنصب الشريف. انتهى.

والحامل للطاعنين في علاه إنما هو الحسد، وما أحقَّهم بقولِ القائل:

حسَدُوا الفتى إذ لم ينالُوا سعيَهُ ... فالقومُ أعداءٌ لهُ وخُصُومُ
كضرائرِ الحَسْنَاءِ قُلْنَ لوجهِها ... حسداً وبغياً: إنَّه لدَمِيمُ

يا كعبُ ما إن رأى مِنْ بيتِ مَكْرُمَةٍ ... إلا له مِنْ بيوت النَّاسِ حسَّادُ

حَسَدُوكَ أنْ رأوْكَ فضَّلك الـ ... ـلَّه بما فُضِّلْتَ به النُّجَبَا

إن يحسُدُوني فزادَ الله في حَسَدِي ... لا عاشَ مَنْ عاشَ يوماً غيرَ مَحْسُودِ
ما يُحْسَدُ المَرْءُ إلا مِنْ فضائِلِه ... بالعلم والبأس أو بالمَجْدِ والجُودِ

فازدادَ لي حَسَداً مَنْ لستُ أحسُدُه ... إنَّ الفضيلةَ لا تَخْلو عَنِ الحَسَدِ

وقا الصَّفِيُّ الحلِّيُّ فيما أنبأني به أبو هريرة القبَّاني، عَنِ ابنِ رافعٍ، عنه:

أوَدُّ حُسَّادِيَ أن يكْثُرُوا ... وأعذُرُ الحاسِدَ في فِعْلِهِ
لا أفقِدُ الحُسَّادَ إلا إذا ... فقدت ما[1] أُحْسَدُ مِنْ أجْلِهِ

وقال غيرُه:

---

(١) في (أ): «من».

ما ضرَّني حَسَدُ اللِّئامِ ولم يَزَلْ ذو الفَضْلِ يحسُدُه ذَوُو النُّقْصانِ
يا بُؤْسَ قَوْمٍ ليس ذنبي بينهم إلا تَظَاهُرُ نِعْمَةِ الرَّحمنِ

إنَّ العرانينَ تَلَقَّاها مُحَسَّدةً ولا ترى لِلِئامِ النَّاسِ حُسّادا

وقيل:

أُغْرِيَ النَّاسُ بامتِداحِ القديم وبِذَمِّ الحَدِيثِ غيرَ ذَمِيمِ
ليس إلا أنَّهم حَسَدُوا الحيَّ ورَقَوا على العِظامِ الرَّمِيمِ

وفي المعنى:

النَّاس أعداءٌ لرَبِّ فضيلةٍ مشهورةٍ ما دام حياً يُرْزَقُ
فإذا قضى أثنى عليه عدُوُّه كلَّ الثَّنا وَهُو المَغِيظُ المُحْنَقُ

وقد روينا عن المزني أن الشافعي رحمه الله قيل له: إنَّ فلاناً يقول: الشافعيُّ ليس بفقيه، فضحك، وأنشأ يقول:

إنِّي نَشَأْتُ وحُسَّادي ذوو عَدَدٍ ربَّ المعارجِ لا تُفْني لهم عَدَدا

وعن الربيع، سمعت الشافعي ينشد:

كلُّ العداوةِ قد تُرجَى إماتَتُها إلا عداوة مَنْ عاداك بالحسد

وسمعته أيضاً يقول: يحسُدُني مَنْ هو مني إذ ليس مثلي، ويحسُدُني من هو مثلي إذ ليس منِّي.

وأنشد أبو الطَّيب سهلُ بن محمد بن سُليمان الصُّعلوكي للشافعي أيضاً:

وذو حَسَدٍ يغتابني حيثُ لا يرى مكاني ويُثني صالحاً حَيْثُ أسمَعُ
تورَّعْتُ أن أغتابه مِنْ ورائه وما هو إذ يغتابُني متورِّعُ

وروينا مِنْ طريق المُزَنِيِّ والرَّبيع، كلاهما عَنِ الشَّافعي:

لما عَفَوْتُ ولم أحقِدْ على أحدٍ ... أرَحْتُ نفسيَ مِنْ همِّ العداواتِ
إنِّي أُحَيِّي عَدُوِّي عندَ رؤيتِه ... لأدفَعَ الشرَّ عنِّي بالتَّحيّاتِ
وأُحسِنُ البِشْرَ للإنسانِ أبغُضُه ... كأنه قد حشا قلبي مَسَرّاتِ
ولستُ أسلَمُ مِنْ خِلٍّ يخالِفُني ... فكيفَ أسلَمُ مِنْ أهلِ العداواتِ
ولستُ أسلَمُ ممَّن ليس يَعْتَبُني ... فكيف أسلَمُ مِنْ أهلِ المودَّات

والمحسود أبداً يُقْدَحُ فيه، لأنَّ الحاسدَ لا غَرَضَ له إلا تتبُّع مثالبِ المحسودِ، فإن لم يَجِدْ، ألزَقَ مثلبَتَه به، وقد قيل:

عِداتي لهم فضل عليَّ[1] ومِنَّةٌ ... فلا أذهبَ الرَّحمٰنُ عنِّي الأعاديَا
همُ بحثُوا عَنْ زلَّتي فاجتنبتها ... وهم نافَسُوني فاكتَسَبْتُ المعالِيَا

على أنَّه رحمه الله لم يزدَدْ مع طعنهم في جنابه[2]، وخوضهم في شريفِ مراتبه إلا رفعةً.

ما يضرُّ البحر أمسى زاخراً ... إنْ رمى فيه غلامٌ بحَجَرْ
ما ضرَّ بحرُ الفراتِ يوماً ... إذ خاضَ فيه بعضُ الكلابِ
لو رجمَ النَّجمَ جميعُ الورى ... لم يصلِ[3] الرَّجمُ إلى النَّجمِ
يا ناطِحَ الجبل العالي ليَكْلِمَه ... أشْفِقْ على الرَّأسِ لا تُشْفِقْ على الجَبَلِ
كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلِقَها ... فلم يَضِرْها وأوهى قرنه الوَعِلُ
لا تَضَعْ مِنْ عظيمِ قدرٍ وإن ... كنتُ مشاراً إليه بالتَّعْظيمِ

---

(١) في (ب): «علي فضل»، خطأ.
(٢) في (ب): «جانبهم»، وفي (ح): «جانبه».
(٣) في (ط): «يحصل»، خطأ.

فالعظيمُ الخطيرُ يَصْغُرُ قدراً بالتَّعَدِّي على الخَطيرِ العَظيمِ
وَلَغُ الخمرِ بالعقول رمى الـ ـخمرَ بتنجيسها وبالتَّحريمِ

وقلَّ مَنْ يخلو مِنْ كلام؛ لكون اتِّباعِ الهوى هو الأغلب إلاَّ في النادر، والبلاءُ في تتابُعِ الألسنة كلِّها. نسأل الله التوفيق.

ومَنْ ذا الذي يَنْجُو مِنَ النَّاسِ سالماً وللنَّاس قالٌ بالظُّنون وقيلُ

وهذا لأبي العتاهية، وقبله:

أرى عِلَلَ الدُّنيا عليَّ كثيرةً وصاحِبُها حتَّى الممات عليلُ

وقال الآخر:

سلمت وهل حيٌّ من الناس يَسْلَمُ[1]

ومن سعة حلمه أيضاً:

أنَّ بعضَ الشُّعراء[2] ممَّن عاونَ في المصنَّف المشار إليه بالَغَ في هجائه، فما احتمل أتباعُ صاحبِ التَّرجمة ومحبِّيه ـ لا سيَّما ولدُه ـ ذلك، وأمروا بإحضاره فأُحْضِر، وبلغه ذلك، فتغيَّظ عليهم، وأمر بصرفه مُكْرَماً، بل أنعم عليه بشيءٍ مِنَ الدُّنيا.

بل أخبرني قاضي القضاة شيخُ المذهب العزُّ الحنبلي أنَّ المشارَ إليه أخبره أنَّه ضبط ما يَصِلُ إليه مِنْ صاحبِ التَّرجمة، فكان ألف درهم في كلِّ شهر، وكان يقول: لستُ الآن أتردَّدُ لمن تحصُلُ لي منه الدنيا والآخرة غيره، يشيرُ إلى أنَّه كان ـ مع كثرة إنعامه عليه ـ يستفيدُ منه علماً جمَّاً، كما أسلفتُه في أوائل الباب الثاني.

---

(١) في (أ): «سالم».

(٢) هو النواجي كما سيصرح باسمه، والمصنف قريباً.

ولقد قال الشيخ محمد بن زكينة النحريري الطَّويل، ويقال له: ابن القاضي، أحدُ المادحين لصاحب الترجمة، وهو ممن أضربنا عن إيرادِ شيءٍ مِنْ شعره، وكان هو يحضُّ أهلَ المجلس على الإصغاء لسماع مدائحه التي يتولى إنشادَها بين يدي المُمَدَّح بصوته الجهوري، حتى قال مرَّةً للنَّواجي، وهو الذي أهملت ذكره: يا نواجي، إنِّني لسماعِك راجي، وإلا أكونْ لك هاجي، مخاطباً[1] لصاحب الترجمة: يا مولانا، لِمَ تُعطي النَّواجي في قصيدته ثلاثةَ آلاف وتعطيني في قصيدتي ثلاثمائة؟ فقال: أما سمعت: «اقطَعُوا عنِّي لسانه»؟ انتهى.

وإذا تأمَّلتَ ما حكيتُه عَنْ هذا الشَّاعر المبدأ بذكرِه، علمتَ سُوءَ طباعِه ودناءَةَ أصلِه، حيثُ يقول [ما أستغفرُ الله مِنْ إثباته][2]:

يا مَنْ يَرُومَ نوالاً مِنْ بني حَجَرٍ ... لقد نَزَلْتَ بوادٍ غيرِ ذي ثَمَرَه
كيف تُرَجَّى خيورٌ تأتِ مِنْ حَجَرٍ ... وهو المُعَدُّ للاستنجاءِ والعَذَرَه

لكن قد عارضه بعضُ أصحابنا، [فأنشدني][3] البدرُ الأنصاريُّ رحمه الله لنفسه:

يا مَنْ يرومُ عطاءَ مِنْ بني حجرٍ ... لقد أَمَمْتَ عظيماً فاسْتَمِعْ خبَرَه
منه تفجَّر ماءُ العَذْبِ ثمَّ وكَمْ ... مقبِّلٍ في طوافٍ مرّة حَجَرَه

ومما يُنسب لبعضهم:

دحاك الله مِنْ حَجَرٍ دعانا ... إلى البيداء وهو بها مُقَصِّرْ
فأبْشِرْ بانكسارٍ عَنْ قريبٍ ... ومُت كمداً فما لَكَ مِنْ مجبِّر

قلت: ويظهر أنهما للشَّاعر الأول، فما يجسُر لذلك غيرُه. قاله تعصُّباً لمن استعانَ به فيه، حيثُ نَسَبَ لصاحبِ التَّرجمة قوله:

دعاوى فاعلٍ كثُرَتْ فساداً ... ومَنْ سَمِعَ الحديث فسَوْفَ يُخبِرْ

---

(١) في (أ): «مخالطاً»، تحريف.

(٢)(٣) ما بين حاصرتين لم يرد في (ط).

ولـــولا أنَّـــه رام انـــكـــســـاراً لـمـا طَـلَـبَ الإعـانَـةَ بـالـمُـجَـبِّـر

ولولا تبشيع بعضِ النَّاس في إيرادِ ذلك، ما أثبتُّ شيئاً مِنْ هذا، والله يغفر لنا أجمعين.

وكنت مرَّةً بين يديه بالمنكوتمرية، فجاء إبراهيمُ ابن الشيخ جمال الدين عبد الله ابن الحافظ شهاب الدين أحمد العُرياني، وكان حينئذٍ متَّصفاً بما علمتَه غائبَ العقلِ، فوقف مِنْ وراء شُبَّاكها، وأخذ في السَّبِّ الفاحش والألفاظ القبيحة، فقال: نقومُ إلى أن يفرَغ أو يروح، ونهضَ فدخل مِنْ بابِ الخلوة، وردَّ بابها يسيراً، فترك العرياني الشُّبَّاكَ وانصرفَ، فظنَّ صاحب الترجمة توجُّهَه بالكلِّيَّةِ، ففتح باب الخلوةِ ووقف، وإذا بالعرياني أقبل مِنْ بابِ المدرسة، وأخذ فيما كان فيه وأزيَدَ، فقال: ما بقيَ إلا الانصراف، وغلَّق البابَ وذهب، واستمرَّ المخذولُ فيما هو فيه ساعةً، ولم يمكِّن مَعْ ذلك كلُّه أحداً مِنَ التَّعرُّضِ له، بل سمع أنَّه في تلك الليلة أمسكه بعضُهم ـ لا لهذا السبب ـ بأعوانِ الوالي، فأرسل إليه وأطلقه.

ولما مات شيخُنا ابنُ خضر، وكان بيده تدريسُ الحديث بالبيبرسية نيابةً عن صاحب الترجمة، توجه الشَّريفُ موسى السِّرسنابي للناظر، وسعى فيه لنفسه بناءً ـ فيما يظهر ـ على أنَّ ابن خضر كان فيه استقلالاً، فلم يُجَب، ووصل علم ذلك لشيخنا، فلم يظهر له شيئاً مِنْ ذلك، ولا كان بمانع له عن إقرائه. نعم، قال بعد أن فرَغَ مِنْ قراءة درسه لبعض جماعته: هذا سعى في وظيفتي، ثم جاء يقرأ عليَّ!

واجتاز مرةً وهو في طائفةٍ مِنْ جماعته بباب جامع الغمري، وثَمَّ شخصٌ يقال له: علي بن خليفة، يُذكر بالجذب، فبدت منهُ كلماتٌ يابسةٌ، منها قوله: عمائم كالأبراج، وأكمام كالأخراج، والعلمُ عند الله. فرام بعضُ جماعته منه تعزيره بالحبس ونحوه، فامتنع وقال: هذا مجذوب يسلم له حاله، وقدر أن صاحب الجامع عَلِمَ بذلك فتألَّم، وطرد الرَّجُلَ المشار إليه أو هجره بعد أن قال له: هذا شيخ السُّنَّةِ، أو كما قال.

وأحضروا له مرةً مراسلةً مِنْ بعضِ تلامذته إلى القاياتي قاضي الشَّافعية

إذ ذاك، فرأى فيها مكروهاً كثيراً، بل قيل: إنَّ هذا التِّلميذَ لو رأى مِنَ القاياتي حينَ قُدومه مِنْ هذا السَّفرة التي كاتبَهُ فيها بما أُشير إليه مزيدَ إقبالٍ، لكانَ هُو المطاعِنَ في صاحب التَّرجمة وولده عنده، لكنَّه خُذِلَ ببابه في كائنةٍ سهلة.

ورأى شيخنا مرة قد ترجم التَّاجَ عبد الرحمن بن الشهاب الأذرعيِّ قاضي دمنهُور، وقال في ترجمته: رحل إليه ابن فهد، فكتب المشارُ إليه بهامشِ خطِّه ما نصُّه: سبحان قاسمِ الحظوظ، لم يرحل إليه ابنُ فهدٍ إلاَّ معي، ولا سَمِعَ عليه إلا بقراءتي. ووقف صاحب الترجمة على ذلك، وكان وقع في خاطري جمع ترجمة شيخنا في حياته، والتمستُ منه أن يملِيَ عليَّ منها ما لا أطَّلِعُ عليه إلا مِنْ قِبَله، فقال لي: قد كتب فلانٌ ـ وعنى المهملَ ـ عنِّي شيئاً مِنْ هذا، والآن كما حضر عندي صهرُه، وأرسلتُ له به معه، فاطلُبْه منه حتَّى أُرشِدَك لما فيه حصولُ المقصِدِ، فتوجهتُ مِنْ فوري إليه، وحكيتُ له الواقعة، فقال لي بصوتٍ مرتفع: هيهات هيهات، قد غيَّرتُ وبدَّلتُ، أيظُنُّ بقاءَها كما شاهدها. لا والله، فرجعتُ وبي من الغُبن ما الله به عليم. هذا وصاحبُ التَّرجمة يعلمُ بذلك وأزْيَدَ منه، ويحلمُ عليه في ذلك كلِّه، بل ولا يظهر له إلا الجميلَ ولينَ القولِ والانبساط، أثابه الله على صنيعه.

ولما مات صاحبُ الترجمة، توجَّه هذا المبهم لبعض خواصِّ الكمال ابن البارزي مِنْ أحبابنا، كثَّر الله منهم، وقال له عن ولدِه: إنَّه عامِّيٌّ، وصفته كَيْت وكَيْت، وذكر أوصافاً، وأُحبُّ أنَّ القاضي يأخذ لي مِنَ الكتب التي عنده الكتابَ الفلانيَّ، فما انجرَّ المشارُ إليه معه لهذا، حِفْظاً لشيخه في ولده، لمزيدِ حُبِّه فيه، وما بلغ ـ ولله الحمد ـ منه أرباً. وحاول مناكدَتَه مرَّةً بعد مرَّةٍ، فما ظفر.

وقد أسلفت في الباب الرابع حكايةً للوجيزي أيضاً دالة على سعة حلمه.

وكتب له بعض الطلبة ورقة فيها ألفاظٌ غيرُ لائقةٍ بجنابه، لكونِ هذا الطالبِ تعرَّض له طالبٌ آخر، وشيخهما ساكتٌ، فلم يُعجِبْه ذلك، ولامه عليه، فكتبَ له ما نصه: نظرَ العبدُ لما سطر باطنها، والجوابُ ما قيل به

(أبعد ستّين منّي يبتغي الأدباء)، فضلاً عَنْ سبعين، فضلاً عَنْ ثمانين. وقد قيل أيضاً:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتّى يوارى في ثرى رِمْسِهِ

إلى أن قال: ونحنُ ابتُلينا بقوم ما تعودوا تربية أهلِ الكمال، وإنّما تعوّدُوا بجفاءِ الأغفال، فلا حولَ ولا قوّة إلا بالله.

ونحوه قوله لبعض جيراننا: قد ابتُلينا بمن ينازع فيما نقولُه ويوهيه مشافهةً، بل وصرّحَ بأعلى مِنْ ذلك بدون أدب. ولطالما أُوذِيَ رحِمَهُ الله مِنْ أتباعه وبعض طلبته، فيحتسِبُ ويصبِر.

اتّفق أنّه قام في منع خطبة أُحدثت بمصر بمدرسةٍ جَعَلَ واقفُها فيها مدرساً، وطلبه بعد إبطالِ الدّرس ليصرِفَ معلومَه في الخُطبة وتوابِعِها مِنْ غيرِ ضَرُورةٍ للتعدُّدِ ولا مُسَوِّغ معتبر للإبطال. وعورض في منعه بحيث لم يتمَّ قصده.

ورام بعضُ أهلِ الدَّولةِ التسلُّط على أهلِ الذِّمّة المؤدِّين للجزية في أخذِ أموالهم، مستنداً إلى أنّهم أحدثوا في الكنائس بناءً، ونحو ذلك، فعارضه بمذهبه، حيثُ لهم إعادةُ ما استُهْدِمَ منها بشرطِه، فشافهه حينئذٍ تلميذُه القاضي بدرُ الدِّين بن التنسي بما لا أحب إثباتَه وإن تعرّض له بعضُ المؤرِّخين.

وكنت بين يديه بتربة قجماس، أقرأ عليه بعضَ المرويّات بمحضرِ حافلٍ، فيه شيخُ الإسلام الأقصرائي والبدرُ البغدادي الحنبلي، أحدُ تلامذة صاحب الترجمة، ومَنْ شاء الله مِنَ الخلق، يوم توفي شيخنا المستملي أبو النّعيم رضوان العُقبي[1]، وكان مِنْ جُملةِ الحاضرين الشيخ شهاب الدين العُقبي، وهو أخو المتوفى المذكور، فلما تمّتِ القراءةُ، واستجزتُ المسمِعَ على العادة، التمس منّي الحنبليُّ المذكورُ ـ بحضور شيخنا ـ استجازة

(١) في (ب): «العقيلي»، تحريف.

العقبي، وفهمتُ قصده في ذلك، فلم ألتفت لقوله، وكرر ثانياً وثالثاً، وصمَّم وجاكر، فلم أُجِبْ سؤاله، وقلتُ في المجلس: لا أستجيزُ بحضورِ شيخِ مشايخِ الإسلام استجازةَ غيرِه أدباً. وصار شيخُنا لا يُظهر تأثراً بذلك، مع فهمه مِنْ مقصده ما فهمْتُ، بل صار يقول: قد أعلمتُ أصحابنا بما للشِّهاب معي من المسموع. وخرَّج له صاحبُنا ـ وأشار إلي ـ مشيخةً بيَّن فيها ذلك (مع غيره)[1]، وأحضرها إليَّ، فكتبت له عليها «الفتح القُربي في مشيخة الشِّهاب العقبي».

واتفق حضورُ الجنازةِ، وقيامُ الجماعةِ للصَّلاة، ورجع ما أخفاه الحنبليُّ في هذه الواقعة عليه، فاستمرَّ مضمراً لي ذلك مع حادثةٍ اتَّفقت لي معه بعد وفاة صاحب الترجمة، قُهِر ـ ولله الحمد ـ فيها كهذه أو أعظم، وما كفَّه عنِّي إلا الله عزَّ وجل، لما علمت مِنْ شدَّة بأسه، وقيامِه في ناموس نفسه. وكنتُ لما استشعرت منه إضمارَ شيءٍ مِنْ أجل ذلك، واتَّفق توجُّهي لمكَّة المشرفة، شربتُ ماء زمزم لكفاية أمره، ورجعتُ فقابلني بالإكرام، ووالى ذلك عليَّ مرَّةً بعد أُخرى، وصِرْتُ بسبب ذلك أتردَّدُ إليه أحياناً، إلا أنَّه مات عَنْ قُرْبٍ جداً، رحمهم الله تعالى.

هذا مع أنَّ الحنبليَّ المشار إليه كان تلميذه ونائبه، بل كان يحكي عن نفسه أنَّه كان ابتداء أمره يقرأ «الشفا» عند ضريح إمامِنا الشَّافعي، وفي يوم ختمه يحضُرُ شخصٌ من المتموِّلين[2]، فيفرِّقُ على الفُقراء الحاضرين صُرَّة صرَّة، ويُعطي القارىء فيما بينهما صُرَّةً جيدة. قال: فاتفق في بعض السِّنين أنْ ماتَ هذا الرَّجلُ يومَ الختم. قال: فقلت في نفسي: مِنَ الإنصاف حضورُ جنازته، ثمَّ نرجعُ، فنختم، ونُهدي ثوابَ ذلك في صحيفته، ففعَلْتُ بحضورِ مَنْ له عادةٌ مِنَ الفقراء في الحضور، وحصل منهم تألُّمٌ على فقده، فلمَّا كان مساء تلك الليلة، رأيتُ في المنام كأنَّ عندي مِنَ الغنم ما لا

---

(١) ساقطة من (ب).

(٢) في (ب، ط): «المتولين».

أصِفُه، فلمَّا أصبحت أُخبِرتُ عَنْ شخصٍ مِنَ الأعيان أنَّه ترك وظيفته[1] بالشَّيخونية، وسافر. قال: فجئتُ ـ يعني صاحبَ الترجمة ـ وكان ذلك قبل استقراره في القضاء، وكنتُ أراه بمنزلة الوالد، فأعلمتُه بذلك، فبادر وتوجَّه معي إلى ناظرها، فوصف له حالي، فقرَّرني فيها، ولم يكتَفِ النَّاظر بذلك، بل أنعم بثوبٍ بعلبكِّيٍّ وبأقماع سكَّرٍ ودراهمَ جيدة، وانصرفنا فتوجه معي أيضاً إلى القاضي ناصر الدين البارزي صاحبِ ديوان الإنشاء، فتفضَّل أيضاً، وكان ذلك ابتداءُ الخير، ثم جاءت الغنيمةُ شيئاً فشيئاً، وتحقَّقتُ أنَّ هذا كلَّه ببركةِ الإمام الشافعي. انتهى.

وجاء إلى صاحب الترجمة شخص آخر مِمَّن نال منه كثيراً، بل ربما شافهه بالمكروه، فتلطَّفَ في خطابه، وكان مِنْ جُملة قوله له: كُنْ مِنْ أمَّةِ أحمد، ولا تكُنْ مِنْ قومٍ صالح، فقال له: شَرْعُ مَنْ قبلَنا شرعٌ لنا، ما لم يَرِدْ ناسخٌ. انتهى.

ولله دَرُّ القائل في مَنْ يُعْرِض عمَّن يؤذيه:

لو كلُّ كلبٍ عوى ألقمتُه حجراً ... لأصبحَ الصَّخْرُ مثقالاً بدينارِ

وقال غيره:

ومن[2] قابل الكلبَ العقورَ بما عَوَى ... وقاتله عَمْداً لَمِنْ شِيَمِ الجَهْلِ

لأنَّ مكافأة الكلابِ نقيصةٌ ... تَعُزُّ على الأحرار مِنْ جِهَةِ العَقْلِ

كل هذا مع قدرته على الانتقام، ولكن كان يعفو عند المقدرة، ويتفضَّل الله عز وجل بحصول الانتقام في الدُّنيا قبل الآخرة مِمَّنْ ناوأه ممَّن لم يُخْلِصْ في التَّوبة ويظهر النَّدمَ والرُّجوعَ، ويعزِم على عدم العَوْدِ، كما فعل ابن التنسي رحمهما الله تعالى، فإنِّي رأيته حضر عند قبرِ شيخنا، وصار ينتحب بالبكاء ويصرِّحُ بالتأسُّف على فَقْدِهِ، ويقول: ما كنَّا نظنُّ حصول هذا

---

(١) في (أ): «وظيفة».

(٢) في (أ): «ولو».

الأمر بنا بعدك، يشيرُ إلى كائنةٍ اتّفقت له في قيامه في المنع مِنْ قتل الكيماوي الذي كان ينتسِبُ إلى الشرف، معارضاً للسلطان، وقيام الفاضل شمس الدين الدسطي المالكي بمعاونة أبي الفضل البجائي المغربي في اتّباع عَرَضِ السُّلطان، ليتوصَّلا بذلك إلى غرضهما مِنْ ولايةِ المنصبِ، وغير ذلك، حتى قُتِلَ المشارُ إليه بعد أن عُقِدَ مجلسٌ حافلٌ بسببِ ذلك، وجاهر كلٌّ مِنَ المذكورين ابن التِّنسي بمكروه، فما احتمل ذلك، وقام بعدَ انفضاضِ المجلسِ متوجِّهاً لقبرِ صاحب التَّرجمة، وفعلَ ما قدَّمتُه، وأفضى به الحال مِنْ شدَّة القهر إلى أن مات عَنْ قُرْبٍ، وما كان مقصدُه في ذلك إلا جميلاً، فقد كان متثبِّتاً في الدِّماء، بل وفي سائر الأحكام.

وأما مَنْ عارضه، فانعكس مقصودُهما، ومُقِتَا عندَ الخاصَّةِ والعامَّةِ، وتشتَّتَ شملُهما، واستمرا في انخفاضٍ حتى ماتا.

وكان بعد موت البدر المذكور، توهَّم البجائي حصولُ المنصب، فقام نظامُ المملكة في استقرار القاضي وليِّ الدين السُّنباطي، وحَمَدَ المسلمون ذلك، كما حمدوا ولاية القاضي حسام الدين ابن حريز بالنسبة لمن رَفَعَ رأسه لها بعد موت السُّنباطي المذكور، كالبجائي أيضاً وغيره، لما لا يخفى مِنْ سيرة كلٍّ وسريرته، فسبحانَ الفعَّال لما يريد.

وما كنتُ أُحِبُّ إثباتَ شيء مِنْ ذلك، إلا أنِّي لا آمَنُ حكايةَ الأمورِ على غير جليتها، خصوصاً مِنْ بعض مَنْ ينتسِبُ إلى صاحب الترجمة وإلى البجائي، فأحبَبْتُ الإشارةَ إلى ما لعلَّه يُفْهَمُ منه المقصود.

وبالجملة، فقد رأينا غيرَ واحدٍ ممَّن آذى صاحبَ التَّرجمة أو عارضه، أو تعرَّض لنقصه أو صرَّح بالوقيعة فيه، أو غير ذلك ممَّا الحاملُ على أكثرِه الحسدُ واتِّباعُ هوى النَّفس، مسَّه مِنْ أنواعِ العُقوبات والمِحَنِ ما لا يُعَبَّرُ عنه حتى بإدخال المقشرة، بل ونثر الأسنان أيضاً، مما يتشدَّق في حقِّه بفيه، بحيثُ لا يُقال له: أجدت لا يَفْضُضِ الله فاك، لكن أغضينا عَنْ تفاصيل أحوالهم، مشياً على سُنَّتِه، وما أحسنَ قولِ القائل:

عَـدُوُّكَ مـذمـومٌ بـكـلِّ لـسـانِ ولـو كـان مِـنْ أعـدائِـكَ الـقَـمَـرَانِ
ولله سـرٌّ فـي عـلاك وإنَّـمـا كـلامُ الـعِـدَا ضَـرْبٌ مِـنَ الـهـذيـانِ
رأيت الذي ينوي لك الغدرَ يُبْتَلى بـغـدر حـيـاةٍ أو بـغـدر زمـانِ

وأغربُ ما اتَّفق مِنْ ذلك: أنَّ واحداً ممَّا أُشيرَ إليه سَمِعَ منه التَّصريح بقوله: لا بدَّ أن أُغري السُّلطانَ عليه حتَّى يفعل به كيت وكيت، وذكر ما قدر أنه وقع لقائله مِنْ سجنٍ وأخذِ مالٍ وغيرِ ذلك، نسأل الله السلامة.

وكذا مِنَ الغريب أنَّ بعضهم تعرَّض لولده، ولم يحفَظْ حقَّ والده فيه، فقوصِصَ في ولده بعدَ حينٍ، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا نُطيل بشرحه، ولله در القائل:

ومـا سـادَ أحـدٌ نـاواه ولا كـان ذا اسْـتِـئْـصَـار
ولا سـاء مَـنْ تـولاَّه بـل عـمَّـه بـالـفَـضْـلِ الـمِـدْرَار

لـيس لـلـعِـلْـمِ فـي الـجـهـالَـةِ حـظٌّ إنَّـمـا الـعـلـم طـرفُـهُ الإغـضَـاءُ

وأمَّا مَنْ لم ينتقم منه، فالآخرة خير وأبقى.

وممَّا بلغني عنه أنه قال: مماليكُ الملِكِ على أقسام ثلاثة، منهم مَنْ هو معه ظاهراً وباطناً، ومنهم مَنْ يخالِفُه باطناً، ومنهم مَنْ يتظاهَرُ بمخالفته، وهو مع ذلك لا يحبُّ أنَّ غيره يتعرَّضُ لهم، بل ينتقم ممَّن يتنقَّصُهُم، أو يؤذيهم، ولا شك أنِّي في معظم عُمري[1] قائمٌ بالذَّبِّ عَنْ حديثِ النبي ﷺ وفي خدمته، فنِسْبَتي إليه بذلك صحيحةٌ، وإن كنتُ مقصِّراً، وأرجو بذلك أن يحفظني ويكفِيني سائر مُهِمَّاتي، أو كما قال.

ولا شكَّ أنَّ لحوم العلماء مسمومة، وقد قال النبيُّ ﷺ «مَنْ آذى لي

(١) في (أ، ط، ح): «أمري» والمثبت من (ب) من خط المصنف.

ولياً، فقد بارزني بالمحاربة...» الحديث. والعلماءُ همُ الأولياء، لا سيَّما وقد أسلفتُ[1] التَّصريحَ عَنْ بعض أهلِ الأحوالِ بولايته وقُطبيَّته وغير ذلك، بل وسيأتي قريباً ذكرُ شيءٍ مِنْ كراماته.

ومنها: أنَّه بلغني ممَّا لم أسمعه منه، أنَّه قال في حقِّ القاضي بدر الدين السَّعدي الحنبلي: صِغَارُ قومٍ كبارُ قومٍ آخرين، وظهر تصديقُ مقاله فيه بعد أزيدَ مِنْ خمسةٍ وعشرين سنة.

قلت: ولقد رأيناه ـ رحمه الله تعالى ـ إذا بالغَ في الغضب على أحدٍ مِنْ خَدَمِه أو أتباعه، يقول: إنا لله.

وهذا قريبٌ ممَّا حكاه العجلي في ترجمة عبد الله بن عَوْنٍ البصري أنَّه كان إذا غَضِبَ على أهله، قال: بارك الله فيك، وأنَّه قال لابنٍ له يوماً: بارَكَ الله فيك، فقال له الابن: بارَكَ الله فيَّ؟ قال: نعم. قال له بعضُ مَنْ حضره: ما قال لك إلا خيراً. قال: ما قالَ لي هذا حتَّى أجهَدَه. انتهى.

ولم يكونوا رضي الله عنهم ممَّن يعوِّد لسانه الفُحْشَ. قال السيد عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضلُ الصَّلاةُ والسَّلام لخنزيرٍ لقيه: اذهب بسلام. فقيل له في ذلك، فقال: أكرَهُ أن أعوِّدَ لساني النُّطْقَ بسوءٍ.

قلت: ومع وُفور حلمه، وعدم سرعة غضبه، فكان سريعَ الغضبِ في الله ورسوله، ويصرح ـ كما سلف في أول أجوبته في الفصل الخامس مِنَ الباب السادس ـ باقتداء النَّاس في هذه الأزمان بأولي الجهل، وعدم معرفة الحقِّ، وسيادةِ الوَضيع، وتغيُّر الأحوال، حتَّى عاد الدِّينُ غريباً، إلى غير ذلك ممَّا يشهدُ لصدعه بالحقِّ، وعدم المبالاة في الله تعالى، واتَّفق ـ كما سمعتُه منه مراراً ـ أنَّه جرى بينه وبين بعض المحبِّين لابن عربي منازعة كثيرة في أمرِ ابن عربي، أدَّت إلى أن نال شيخُنا مِنَ ابنِ عربي لسُوء مقالته، فلم يسهل بالرَّجُلِ المنازع له في أمره، وهدَّده بأن يُغْرِيَ به الشَّيخ صفاء الذي كان الظَّاهرُ برقوق يعتقدُه، ليذكرَ للسُّلطان أنَّ جماعة بمصر منهم فلان

---

(١) ص ٩٨٨.

يذكرون الصَّالحين بالسوء، ونحو ذلك، فقال له شيخنا: ما للسُّلطان في هذا مدخَلٌ، لكن تعالَ نتباهل، فقلَّما تباهَلَ اثنان، فكان أحدهما كاذباً إلا وأصيب، فأجاب لذلك: وعلَّمه شيخُنا أن يقول: اللَّهمَّ إنْ كان ابنُ عربي على ضلال، فالعَنِّي بلَعْنَتِكَ، فقال ذلك: وقال شيخنا: اللَّهُمَّ إنْ كان ابنُ عربيٍّ على هُدى، فالعني بلعنتك، وافترقا.

قال: وكان المعانِدُ يسكُنُ الرَّوضةَ، فاستضافه شخصٌ مِنْ أبناء الجُند جميلُ الصُّورة، ثمَّ بدا له أن يترُكَهُم، وخرج في أوَّل اللَّيلِ مصمِّماً على عدمِ المبيت، فخرجُوا يشيِّعُونه إلى الشَّختُور، فلمَّا رجعَ أحسَّ بشيءٍ مرَّ علىَ رجله، فقال لأصحابه: مرَّ على رجلي شيءٌ ناعم، فانظُروا، فنظروا فلم يَرَوْا شيئاً، وما رجع إلى منزله إلاَّ وقد عَمِيَ، وما أصبح إلا ميتاً. وكان ذلك في ذي القعدة سنة سبع وتسعين، وكانتِ المباهلةُ في رمضان منها، وكان شيخُنا عند وقوع المباهلة عرَّف مَنْ حضر أنَّ مَنْ كان مُبطلاً في المباهلة لا تمضي عليه سنة.

قلت: وقد أشار صاحبُ الترجمة أيضاً إلى القصَّة في «شرح البخاري» أواخرَ المغازي عَقِبَ حديثِ حُذيفة رضي الله عنه، قال: جاء العاقِبُ والسَّيِّدُ صاحِبَا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان يلاعناه أي يباهلاه، قال: فقال أحدُهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لَئِنْ كان نبيّاً فلاعنَّاه، لا نُفْلِحْ نحنُ ولا عقِبُنا مِنْ بعدنا[1]. قالا: إنَّا نُعطِيكَ ما سألتنا، وذكرَ الحديث، ما نصُّه: فيه مشروعيَّةُ مباهلة المخالف إذا أصرَّ بعدَ ظهورِ الحُجَّةِ، وقد دعا ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما إلى ذلك، ثمَّ الأوزاعي، ووقع لجماعةٍ مِنَ العُلماء.

ومما عُرِفَ بالتَّجربة أنَّ مَنْ باهل وكان مُبطلاً لا تمضي عليه سَنَةٌ مِنْ يوم المباهلة، ووقع لي ذلك مع شخصٍ كان يتعصَّب لبعض الملاحِدَةِ، فلم يُقِمْ بعدها غيرَ شهرين.

وقد حاكى صاحب التَّرجمة في ذلك بعضٌ مِنَ الحُظوظ الدُّنيوية غالبة

---

(١) في (أ): «من بعدها».

عليه، ويروم عليها اعتماد صنيعه، لا سيَّما في شخص يتجاذَبُ أطرافه جماعة فيهم مِنْ كائنته معه متراخية عَنْ كائنة المُشار إليه، فلا سمع ولا كرامة، بل نحمَدُ الله عز وجل على العافية، ونسأله إلهامَ رُشدِنا، ونستعيذُ به مِنْ شُرور أنفسنا.

وأدى عدمُ إخلاصه إلى المبادرة لمخالفته والتَّصريح بانتقاصه، حتَّى قال فيه بعضهم عقب بيت ما أحببتُ إيراده هنا:

لو قالَ إنَّ الشَّمسَ تظهَرُ في السَّما وقَفَتْ ذَوُو الألبابِ عَنْ تصديقه

وحضر إلى صاحب الترجمة شخصٌ من ضواحي حلب، فاستأذنه للقراءة عليه عَقِبَ مجلسِ الإملاء فأذنَ له، فبادر بإحضارِ كُرسيٍّ، ووضعه وسط المكان، ثمَّ صعد عليه، وشرع في القراءة، فتبيَّن أنَّ في المقرُوء أشياءَ موضوعة، ونحو ذلك، فانزعج صاحبُ التَّرجمة، وسارع للقيام بعدَ أنْ نهرَ القارِىءَ، قائلاً له: أردت أن تقولَ: قرأتُ هذا على فلان، أو كما قال. وكأنَّه فَهِمَ مِنْ قرائن الحالِ جُرأةَ الرَّجل وإقدامَه، وخَشِيَ الاغترارَ به، فبادر للإنكار عليه، وعَدَدْتُ ذلك مِنْ كشفه، فإنَّ المشارَ إليه صار يقصُّ على النَّاس، ويُكثر مِنْ إيراد الأكاذيب والمُهمَلات، فلا حولَ ولا قوَّة إلا بالله.

وكذا اتَّفق له مَعْ شخص رام قراءة «شرح النخبة» عليه، فما أجابه، وتبيَّن تلبُّسَه بما لا يليق اعتقاداً وعملاً.

وأحضر إليه شخص مصنَّفاً له في الحدود والضوابط، رام تقريظه له، فبادر ودفع له ديناراً، واعتذر عَنْ عدم كتابته.

واتَّفق أنَّ صاحبَ التَّرجمة رحمه الله كان شديدَ الإنكار على المنجِّمين ممَّن يَخُطُّ بالرَّمل ونحوه، فسمع ذلك منه بعضُ من كان يحضُر مجلسه، فأخذَ في الإنكار على شيخ كان يتعيَّشُ مِنْ ذلك، مع كونه طعن في السِّنِّ، وكان مِنْ جملة قوله له: اعتقادُ هذا كفر مِنْ أجلِ ادِّعاء علم ما يكونُ قبلَ كَوْنِه، فبادر المشارُ إليه، وشكا الطَّالب لصاحب التَّرجمة، فاشتدَّ إنكارُه على

المنجِّم، وقال له بصوتٍ مرتفع: صدق[1]، هذا كفر.

وجاء مرَّةً مجلس الإملاء، فوجد شخصاً مِنَ الجماعة قد آذى بعضَ الفضلاء، لكونه جلس فوقه، بحيثُ حكى لي مَنْ أثِقُ به أنَّه برك عليه والخنجرُ في كمِّه، وكان بينهما ما لا يليقُ ذكرُه، فانزعج لذلك، حتى إنَّه لم يؤدِّ مجلسَ الإملاء كعادته[2]، وقال: خرجَ النَّبيُّ ﷺ ليخبرَ بليلةِ القدر، فتلاحى رجُلان، فرُفِعت. الحديث.

والحكايةُ منتشرةٌ بين أصحابنا مَعْ أشياءَ مِنْ هذا النَّمط وقعت لهذا المُهْمَلِ، أظرَفُها أنَّه خرجَ ليلةً مِنْ مجلس صاحبِ التَّرجمةِ بعدَ العشاء هو وصاحبُنا الشَّيخ السُّنباطي والشَّيخ تقي الدين القلقشندي، فمشى السُّنباطي بجانبه، وكان المشارُ إليه بالجانب الآخر، بحيثُ صار التَّقي في الوسط، فتغيَّظ على السُّنباطي، وقال: لِمَ لَمْ تمشِ بجانبي حتى أكون في الوسط، إلى غير ذلك ممَّا له غيرُ هذا المحل، نسأل الله التوفيق.

وأما حسن سياسته ومداراته، فلا يُلْحَقُ في ذلك.

وأما صبرُه على مَنْ تعرَّض له مِنَ الحوادث البدنيَّة والماليَّة، وعدم إعلامه بذلك كبيرَ أحدٍ، فغير خفيٍّ.

وسمعتُ بعضَ خُدَّامه يحكي ـ والله أعلمُ بصحَّته ـ أنه بينما هو راكبٌ في بعض توجُّهاته، إذ أحس بشيءٍ مِنْ داخل خُفِّه، بحيثُ صار يتضوَّرُ، لكن وهو صابرٌ لا يتكلَّمُ، إلى أن رجَعَ، فوجدوا ذلك عقرباً، وكانتِ السَّلامة على غيرِ القياس.

قلت: وقد حكى صاحبُ «الشِّفا» عن عبد الله بن المبارك: قال: كنتُ عند مالكٍ رحمه الله وهو يحدِّثُنا، فلدَغَتْه عقربٌ ستَّ عشرة مرة، وهو يتغيَّر لونُه ويصفرُّ، ولا يقطَعُ حديثَ رسول الله ﷺ، فلمَّا فرغ مِنَ المجلس،

---

(١) ساقطة من (ب).

(٢) في (ب): «على عادته».

وتفرّق عنه النّاسُ، قلت له: يا أبا عبد الله، لقد رأيتُ اليومَ مِنْكَ عجباً! قال: نعم، إنّما صبرتُ إجلالاً لحديثِ رسول الله ﷺ. انتهى.

ومن صبره أيضاً: أنّه وضع يده على قُربوص السِّرج عند إرادته الرُّكوب، فلدغَتْه عقربٌ، فرجع إلى منزله مِنْ فوره، وأخذ موسى، فشرط أصبعه.

وطُعِن مرّةً في طاعون سنة ثمان وأربعين، فبالله ما علِمْتُ بذلك.

وكذا توعَّك في سنة اثنتين وثلاثين، فما عَلِمَ به كثيرُ أحدٍ، وعُوفي عَنْ قرب، فاستعرض أهلَ السُّجونِ، وصُولح مَنْ له دَيْنٌ مِنْ مال شيخنا، وحصل لجمعٍ كثيرٍ مِنَ النّاس فرج كثير. أمّا صاحبُ الدَّين، فلِيَأسِه مِنْ حصول شيءٍ مِنَ المسجون، وأمّا المسجون، فلِمَا كان يقاسيه مِنْ شدة الحرّ وغيره. [وفي ذلك يقول:

مولاي يا قاضي القُضاة ومَنْ غَدَتْ ... كلُّ الورى تفديه بالأحداقِ
هُنِّيتَ عاماً مقبلاً يا سيِّدي ... وسَمَوْتَ للعلياء باستحقاقِ
أهلُ الحُبوسِ بأسْرِهم أطلقتَهُمْ ... وأسَرْتهم بمكارِمِ الأخلاقِ
كم مِنْ لسانٍ بالثَّنا أطلقتَه ... فلأنْتَ ممدُوحٌ على الإطلاقِ][1]

بل حكى لي العزُّ السُّنباطي عَنِ الزَّين عبد الغني القِمَني أنّه عرض له في عينه عارضٌ، بحيث لم يكُنْ يُبصِرُ بها كبير شيء، وأنّه أخفى ذلك عَنْ كلِّ أحد.

ونحو هذا ممّا يدلُّ على وُفُورِ عقله وثباته وعدم طَيْشِه، أنّه بينما هو وأصحابُه بعدَ العشاء على العادة، سقط مِنْ سَقْفِ المدرسة ثُعبانٌ بحذائه، فقام مَنْ عنده فزعاً، وثبت هُو مكانه، فلم يتحرّك.

قلت: وكذا يُحكى عَنِ ابنِ المبارك أنّه قال: ما رأيتُ أوقَرَ مِنْ مجلس

(١) ما بين حاصرتين من (ط)، ولم يرد في (أ، ب، ح).

أبي حنيفة رحمه الله، كان يوماً في المسجد الجامع، فوقعت حيَّةٌ في حجره، فهرب النَّاسُ غيره، وما زاد على أن نَفَضَ الحيَّةَ وهو جالسٌ مكانه.

وكذا رواها شقيقٌ بنُ إبراهيم البلخي عن أبي حنيفة، وفيها: أنَّه نفضَها وما زال عَنْ مجلسه، ولا تغيَّر لونُه. قال: فعرَفْتُ أنَّه صاحب يقين.

وبالضِّدِّ مِنْ ذلك: ما شاهدتُه مِنْ بعضِ مَنْ أخذتُ عنه وأنا معه في جماعة، وقع مطرٌ غزيرٌ وفيه بَرَدٌ كبار، فسقط عليه بعضُه، فقام فزِعاً، وعذرته والله في ذلك، فإنَّه كان أمراً مَهُولاً. رحمهم الله أجمعين.

ومن وُفورِ صبره: أنه لمَّا امتُحِنَ في أيَّام القاياتي بإخراج البيبرسيَّة، ثم في أيام السَّفطي بغيرِ ذلك واشتدَّ الأمرُ، كما أسلفناه، كان يُبالِغُ في الحمد ويقول: لو أمرَ السُّلطانُ بإخراجي [من هذا البلد][1] مَنْ كان يمنعُه مِنْ ذلك؟ فما هذا إلا من لُطف الله عز وجل بي، وإن كنتُ أعلمُ أنَّني أكونُ في غير هذا البلد أشدَّ تعظيماً وأكثرَ احتراماً، إلا أنَّ حبَّ المرء وطنه ممَّا جرتِ العادةُ به، لا سيما وفيه شماتة الأعداء وغير ذلك.

وقد أنشد بعضُهم:

تغرَّبْ على اسمِ الله والتَمِسِ الغِنَى ... وسافِر ففي الأسفارِ خَمْسُ فَوائِدِ
تَفَرُّجُ نفس والتِمَاسُ معيشةٍ ... وعِلْمٌ وآدابٌ ورِفْعَةُ ماجِدِ
فإن قيل في الأسفارِ ذلٌّ وغُرْبَةٌ ... وتشتيتُ شملٍ وارتكابُ شَدَائِدِ
فلَلْمَوْتُ خيرٌ للفتى مِنْ مقامه ... بدارِ هَوانٍ بين واشٍ وحاسِدِ

وأما بذله وسخاؤه

فكان عجباً يعسر[2] استقصاؤه:

ومنه ما حكاه لي بعضُ أحبابه ممَّن أثق به أنَّه شكا إليه في وقتٍ مِنَ

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (ب).

(٢) في (ط): «يقصر»، تحريف.

الأوقات التي كان فيها ضيِّقَ الصَّدر بسببِ مَنْ أفحشَ في معارضته ديناً يكونُ قدرَ ستة عشرَ ديناراً، فدفع له ذلك جُملةً.

وكان في كلِّ قليلٍ يُعطي أجلَّ جماعته ـ وهو شيخنا العلامة ابن خضر ـ مالاً جزيلاً يفرِّقُه على الطَّلبة ونحوهم، ويدفَعُ هو لجماعةٍ آخرين، ويجتمع الغوغاءُ مِنَ الفُقراء في يوم مِنَ السَّنة، فيتولَّى التَّفرِقَةَ عليهم غالباً بنفسه أو بحضرته، ويتفقَّدُ أُناساً مِنَ المعتبَرِينَ في العلم وغيرهم بالإرسال إلى محالِّهم، ومنهم القاياتي وابنُ الدَّيري وابنُ الهمام والعزُّ بنُ عبد السَّلام البغدادي والكمالُ الشُّمُنِّي والبدرُ البغدادي الحنبلي، حتى في أوائل ولايته قضاءَ الحنابلة، وأضرابهم.

وحكى العزُّ عبدُ السَّلام المذكورُ، قال: امتدحته بسبعة أبيات، فأثابني عليها سبعة دنانير.

بل كان في كلِّ قليلٍ يتفقَّدُ المحابيس، ويصالحُ عنهم مِنْ ماله، ويُحْسِنُ للفقراء مِنْ جيرانه، كالفقيه شمس الدين السعودي الضرير وغيره. وفي عشر الأضحى يدفَعُ لبعض خواصِّه مائة دينارٍ ليشتريَ بها ضحايا برَسْم الطَّلبة ونحوهم، كما بلغني، أو يفرِّق ذلك دراهم، وكذا يدفَعُ إلى جماعةٍ كثيرين في رمضان عسلاً وبعضهم سُكَّراً، وبعضهم دراهم، توسعةً في نفقة الشَّهر المذكور، إلى غير ذلك مما لا أُطيل بإيراده، لا سيما وهو قد كان يُخفي ذلك جهدَه، حتى إنَّه أخرج مِنْ جيبه دراهم، ودفعها إليَّ أُقَسِّمُها بين ثلاثةٍ جلسوا تُجاهه، توسَّمَ فيهمُ الحاجة، فما رأيتُ القسمة تَصِحُّ، فقلت له: القسمةُ متعذِّرةٌ، من أجل أنَّ العدد كذا، فتغيَّظ عليَّ، لكوني أعلمتُه بالكمِّيَّة، وفهِمْتُ حينئذٍ منه أنَّه يرى حُصولَ صدقة السِّرِّ بذلك للجهل بالقدر.

وقد قال هو في «فتح الباري» ما حاصله: إنَّ المقصودَ مِنْ الحديث: المبالغةُ في إخفاء الصَّدقة، بحيثُ إنَّ شمالَه، مع قُربها مِنْ يمينه وتلازُمهما، لو تُصُوِّرَ أنها تعلم، لم تعلم ما فعلتِ اليمينُ، لشدَّة إخفائه. قال: ويحتمل أن يكونَ مِنْ مجاز الحذف، والتَّقديرُ: حتَّى لا يعلم مَلَكُ شماله، أو حتى

لا يعلم مَنْ على شماله مِنَ النَّاس، وأبعدَ مَنْ زَعَمَ أنَّ المراد بشماله نفسه، وأنَّه مِنْ تسمية الكلِّ باسم الجزء، فإنَّه ينحلُّ إلى أنَّ نفسه لا تعلمُ ما تُنفق نفسه. وقيل: إنَّ معناه التَّصَدُّقَ على الضَّعيف والمكتسِب في صُورة الشِّراء، لترويج سلعته، أو رفع قيمتها، وهذه إن أريد أنها مِنْ صوَر الصَّدقة الخفية، فمسَلَّم. أما كونها مراد الحديث خاصَّةً فلا. انتهى.

ومما اتفق في هذا النوع مما يدل لكرامته: أنَّ بعضَ الفُقراء مِنْ طلبة العلم المُتردِّدين للاستفادة[1] منه حضر إليَّ، وذكر حاجةً، واستشارني في بيع بعضِ كُتبه، ظانّاً حُصولَ شيءٍ مِنِّي، فما تيسَّر، وحضرَ على العادة آخرَ النَّهارِ، فلمَّا تمَّ الدَّرسُ وقام شيخُنا ليدخُلَ، وقف على بابِ خَلْوَتِه وناداه، فدفع له ديناراً.

وحكى لي الشيخُ إبراهيم بنُ سابق الغمري إمامُ المنكوتمرية، قال: كنتُ عنده في وقتِ عشائه، فأمرني فجلستُ بجانبه، وكنت آكُلُ يسيراً حيث حدَّثَتْنِي نفسي بشيءٍ مِنْ جهة كونه قاضياً. قال: فما تمَّ ذلك حتَّى قال لي: كُلْ يا إبراهيمُ وأنت طيِّبُ الخاطر.

وطالما كان بعضُ الطَّلبة ونحوهم يقترضُ منه المبلغ الكثير، ويكتبُ له وثيقةً مِنْ تلقاءِ نفسِه بذلك، فإذا تيسَّر له ذلك، ودفعه إليه، أعطاه منه قدراً كبيراً، فيقع موقعاً عظيماً عند المدين.

واتَّفق أنَّ شيخنا ابنَ خضر توفي ولصاحب التَّرجمةِ عليه مبلغٌ سبعين ديناراً، اقترضها منه مِنْ مدَّةٍ طويلةٍ، فرام شراءَ نسخته بفتح الباري مِنْ تركته، ليوقفها على الطلبة لأجل اعتمادها وإتقانها، فالتمس منه الجمالي ناظر الخاص[2] أن يترُكَها له، ففعل. ولما أحضرَ المبلغَ الذي له، لم يلتَفِتْ لذلك، بل أشارَ بقطع خمسةَ عشر ديناراً منه للأولاد، لكونه كان سكَنَ بالحلبيَّة في بيتهم بجامع صاروجا شهراً، والأجرةُ لا تساوي ذلك،

---

(١) في (أ): «للاستفتاء».

(٢) في (ط): «الخواص».

وبثمانية دنانير برّاً لهم، وبنحوِ عشرةِ دنانير عَنِ النواجي ثمن «مشتبه النسبة»، فإنه كان اشتراه مِنَ التَّركة، فذهب نحوُ نصفِ المبلغ احتساباً، مع أنَّه قال: إنَّ القدر المتأخِّرَ هو لهم، يشير إلى أنه يبرُّهُم به بعد ذلك شيئاً فشيئاً، واعتذر عَنْ عدم تركه بيد المتكلِّم.

وبلغه عَنْ شخصٍ مِنْ أصحابه أنَّه اقترض مِنْ بعضهم مبلغ خمسين ديناراً بستِّين، وارتهن عنده كتباً، فتألَّم لذلك، ثمَّ أمر شخصاً مِنْ جماعته بالتوجُّه للنَّقيب شهاب الدِّين بن يعقُوب، يأمرُه بدفع الخمسين لمن عنده الكتب، واسترجاعها منه، ففعل.

وأحواله ـ رحمه الله ـ في ذلك كلِّه أشهرُ مِنْ أن تذكرَ.

وكان يأتيه في كل خميس شخصٌ، أظنُّه مِنْ أصحاب الأحوال، فيقفُ وهو راكب حماراً خلف الشُّبَّاك المقابل لمحلِّ جلوسه بالمَنْكُوتمرية، ويقول بصوت شجيٍّ: يا فتاحُ يا رزَّاقُ يا كريم، أنت الله، لا تجعل يا مسكين في قلبك إلا الله، فيبادر بإخراجِ دراهمَ مِنْ جيبه، ويرسِلُها له.

وأغربُ ما بلغني في كرمه مما صحَّ عندي: ما أخبرنيه العلاَّمةُ الشِّهابُ أبو الطَّيِّبِ الحجازي غير مرة، قال: بينما أنا في آخر يومٍ مِنْ رمضان بالقراسنقرية، إذ مرَّ بي صاحبي الشيخ محب الدين محمدٌ بن أحمد بن محمد بن محمد بن عُثمان الطُّوخي، وكان له أربع سنين منفرداً عَنِ النَّاس، فسلَّم عليَّ، وسألني: هل أتوجه في غد للسَّلام على صاحب التَّرجمة، فعرَّفتُه أنَّه لم تجرِ لي عادةٌ بالتَّهنئة في الأعياد والشُّهور، فقال: أُحِبُّ أن تفعلَ ذلك مِنْ أجلي، وتقول له: فلانٌ بأمارة ما لَهُ عندَك مائةُ ألفٍ يسلِّمُ عليك. قال الشِّهاب: فاستثقلتُ هذا، وقلت له: لا أحبُّ هذه الرسالة، فقال لي: افعل ذلك، فهو لا يكرَهُهُ، وشرع يحكي لي سببها، فقال: جئتُه يوماً، فسلَّمْتُ عليه، وشكوتُ له إفلاساً، فقال لي: احتكِمْ عليَّ، فقلت له: مائة درهم. قال: فأقْفني، وقال: ما ظنَنْتُ همَّتك تُؤدِّي إلى هذا وأنت رفيقي في الاشتغال وصاحبي، ومِنْ أهلِ الفضل، وقد أضمرتُ في خاطري أنَّكَ ـ والله ـ لو طلبتَ مائة ألف، أعطيتكها، ولكن

هي لك دَيْنٌ عليَّ، ثم دفع إليَّ عشرين ديناراً. قال الشهاب: فلما كان الغد، حيثُ شيخُنا صاحبُ الترجمة، كما طلب المحبُّ منِّي، فلاطفني على العادة، وأجلسني بحذائه على السِّماط، فقلتُ له: معي رسالةٌ إليكم مِنْ فلانٍ، فقال: أهو موجودٌ، فلي مدَّةٌ ما رأيتُه؟ فقلت: إنَّ له الآن أربعَ سنين مُخْتَلياً، وقد جاءني بالأمس، وذكر لي شيئاً لا أحبُّ ذكره، فقال: قل، فقلتُ له: إنَّه قال لي: إنَّ له معكم مائةَ ألفٍ، مع أنِّي سألته أن يرفَعَ عنِّي كُلْفَةَ تبليغِ ذلك إليكم، فقال: لا تفعل، فإنه يُحِبُّ ذلك، فلما ذكرتُ ذلك، قال شيخُنا لي: فهل ذكر لك السَّببَ في ذلك؟ فقلت: نعم، وسكتُّ، فشرع يحكيه كما حكاه لي المحبُّ سواء، ثم قال عَقِبَ الحكاية: أرْسِلْهُ لي. انتهى. وهذه الحكاية ما سمعتُ في كرمه أبلغَ منها، فرحمه الله.

وحضرت إليه مرَّةً جاريةٌ مِنْ معتَقاتِ وصيِّه ابن الخُروبي ممَّن لها عليه نَوْعُ تربيةٍ وخدمةٍ، فشكت إليه حالها، فأعطاها عشرةَ آلاف درهم، وألزمها بإعلامها إيَّاه إذا فرَغَتْ، ليُرْدِفَها بغيرها، وبالغ في إكرامها، وأعلم الجماعة بما لها عليه مِنْ حقِّ التَّربية ونحو ذلك. هذا بعد أن قالت له: يا ابني يا أحمد، قد صِرْتَ إلى أمرٍ عظيم، أو نحو ذلك.

والتمس شخصٌ مِنَ الشَّيخ مدْين والشَّيخ عُبادة الإرسال إليه بسبب وفاء دَيْنٍ كان عليه، وهو أربعُونَ ديناراً، فلم يفعل ذلك، لعدم عِلْمِهما بصحَّة دعواه، فذهب هو بنفسه إليه، وأظهر انتساباً لكلٍّ مِنَ الشَّيخين، ولوَّح بمعرفتهما بدَيْنِه، فلم يُكذِّبْ خبرَه، بل بادرَ ودفَع له عشرين ديناراً، وقال له: سل الشيخين[1] في إعلامي بحقيقةِ ذلك، وأنا أُكمل الباقي، فتوجَّه إليهما أيضاً، وحكى لهما ما اتَّفق، فزبرَه الشَّيخ عُبادة، وقال: إن لم تكفَّ عنَّا وإلا أرسلتُ إليه أنَّا لا نعلم صحَّة ذلك، أو كمال قال.

وكان لمزيد رغبته في البِرِّ وصلة الرَّحِم، يميل لمن يبلغُه عنه ذلك، فحكى لي القاضي علاءُ الدين البلقيني حفيدُ شيخ الإسلام الجلال البُلقيني،

(١) في (ط): «الشخصين».

قال: كان زوجُ والدتي الشِّهابُ أحمد بن قطب يجلِسُ بحانوتِ العُدول بميدان القمح، فرمت الجُلوسَ معه، فتأثَّرَ لذلك، وشكاني للوالدة، فألزَمَتْني بترك ذلك، فامتثَلْتُ أمرها، واتَّفق أنَّها ماتت بعدُ، فاستصْحَبْتُ عدم الجلوس معه إرعاءً لخاطرها بعد وفاتها قال: فكان صاحبُ التَّرجمة رحمه الله يقولُ لي: قد شكرتُ صنيعَك في مراعاة خاطرِ والدتك بعدَ مماتها، وازددتُ فيك محبَّةً لذلك، وعتِبْتُ على الشَّيخ وليِّ الدين محمد بن عبد الله البُلقيني ـ يعني جدَّ البهاء أبي البقاء ابن القاضي علم الدِّين البُلقيني ـ مع محبَّتي له، كيف يسعى على قريبه الشِّهاب العجميِّ في قَضاء المحلَّةِ.

وكان رحمه الله يبالغُ في الاحتياطِ في إخراج زكاتِه وفِطْرَته، حتَّى إنه كان يأمر من يشتري له ليلة العيد مِنْ كلِّ مِنَ القمح والزَّبيب والتَّمر ما يكونُ مجزئاً عنه وعن مَنْ تلزَمُه نفَقَتُه.

وأما شفقتُه على خلق الله تعالى

لا سيَّما طلبة العلم منهم: فأمرٌ يطولُ شرْحُه.

ومن ذلك حكايةُ المقترض لخمسين ديناراً بستين، كما سلفت قريباً[1].

ومنه أن الشيخ غرس الدين[2] خليل الحسيني كان قد استكتبه القاضي تاجُ الدِّين البُلقيني في كتابٍ استعاره مِنْ والده، وقُدِّرَ ضياعُه مِنْ تحتِ يدِ النَّاسخ، فخشِيَ مِنَ القاضي جلال الدين، وحكى ذلك لصاحب التَّرجمة، فقام معه في الفحص عنه مِنَ الكُتُبِيِّين ونحوهم، رجاء الظَّفرِ به، ليزول ما عند الغرس مِنَ الكَرْبِ بسببِ فَقْده، وحرَصَ على ذلك أشدَّ الحِرْصِ، إلى أن غلبَ على ظنِّهِ اليأسُ منه، فحينئذٍ حصَّلَ له منه نسخةً، وعاونه بوَرَقٍ أو ثمنه، حتَّى جدَّد منه نسخةً، فكان الشَّيخُ خليل رحمه الله يذكُرها في كلِّ قليل في عدِّ حسناته وشفقته على أهل مودَّاته.

---

(١) ص ١٠٠٩ من هذا الجزء.

(٢) في (أ): «عز الدين»، خطأ، وهي على الصواب مع الحكاية في هامش (ح) بخط المصنف.

وقريب الشَّبَهِ مِنْ هذا: ضياعُ مجلَّدٍ مِنْ «تاريخ الإسلام» للذهبي مِنْ نسخة الزَّيني عبد الباسط، وهي بخطِّ البدر البِشْتَكي، وبلغه عِلْمُ ذلك ممَّن ضاع المجلَّدُ منه، رجاء تفريج الكرب منه بسببه، فبادر وأخذ ذلك المحلَّ مِنْ نُسخة الأصل مِنَ المحمودية، وتوجَّه به مع ورقه وأجرته للبِشْتَكي، فشرع في تكميله. واتَّفق أنَّه قبلَ انقضاءِ الكتابة، وجدَ المجلَّدَ، فامتنع شيخُنا مِنَ التَّمكين مِنْ إعلام البدر بذلك، لظنِّه أنَّ شهامةَ البدر تقتضي إرسالَ الورق والأُجرة، ويتعطَّل عليه ما كتبه، بل استمرَّ إلى أن فرَغ، ولم يُعْلِم بوجدان المجلَّد.

ونحوه استكتابه لجماعةٍ ممَّن ليس خطُّهم بالطَّائل، فإنَّه كان فيما يغلِبُ على الظَّنِّ لا يقصِدُ إلاَّ البِرَّ لهم بذلك. ومِنْ هذه الطَّائفة الشَّريف شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر السُّيوطي، البارع في الفرائض والحساب، والمعروفُ بالخِفَّة والانجماع الزائد، وهو أخو السَّيد صلاح الدِّين محمد، أحد الآخذين عنه، رحمهم الله وإيانا.

ومن محبته لوصول الخير إلى العلماء ونحوهم أنَّ النجم ابن حجِّي استنزل البرماوي عن درس التَّفسير بمائة دينار لصاحب الترجمة كما تقدَّم، وعن مشيخة الفخرية للبرهان البيجوري بخمسين ديناراً، وورد النُّزول بذلك على شيخنا، فأخفى عن البرهان العلم به حتَّى استكتب الناظر، وأخذ خطوط[1] المباشرين، وتوجَّه إليه بذلك فسُرَّ غاية السُّرور.

[إحسانه للغرباء]

وأخصُّ منه إحسانه للغرباء من الطلبة الوافدين إليه، وقد كانوا عنده على مراتب؛ منهم مَنْ يتفقَّده كلَّ قليل، ومنهم من يقررُ له شيئاً ينفقُه كل يوم، ومنهم من يتفقَّدُه عند قدُومه وعند سفره، ومنهم مَنْ يعلمُ عدمَ حَاجَتِهِ، لكنه يحبُّ إكرامه، فيهدي إليه إما شيئاً مِنْ تصانيفه أو ثياباً مِنْ ملبوسه، وهذا يكونُ عند المهديِّ إليه أعظمَ مِنْ مفروحٍ به، إلى غير ذلك مِنَ الأقسام.

---

(١) «خطوط» ساقطة من (أ).

وكان مِنَ الغرباء الواصل إليهم برُّه ناصر[1] بن أحمد بن يوسف بن منصور البسكري، فإنه ممن لازم صاحب التَّرجمة مدَّةً طويلة، بل قال شيخنا في «معجمه»: استفدتُ منه. ولهذا قال المشارُ إليه ما نصُّه: واتَّصلتُ بخدمة سيِّدنا ومولانا، يعني صاحب التَّرجمة، فآنسَ الغُربة، وأنسَى الكُربة، وأحسن المعونة، وكفى المؤونة، وعمَّني خيرُه وبرُّه، ووسِعَني حِلْمُه وصبرُه.

وممَّن قدم عليه شخصٌ من الفُضلاء اسمه أسدُ الله[2]، فكان يتفقَّدُه كلَّ قليلٍ بألفِ درهم، فلما أراد الرُّجوعَ إلى بلاده، تكلَّم له شيخُنا ابنُ خضر مع صاحب التَّرجمة في إمداده بشيء، فكتب له وصولاً بثلاثمائة درهم، فحصل له ولمن توسَّل به تأثُّرٌ مِنْ ذلك، ولكنهما لم يجدا بُدّاً مِنْ قبضه وسافر، فحين وصوله إلى بيت المقدس تُوفِّي قبل نفاذ القدر المذكور فعُدَّ ذلك مِنْ كرامات صاحب الترجمة.

[برُّه لأهل مكة والمدينة:]

وأما أهلُ مكَّةَ والمدينة، فإنّه لما حجَّ آخرَ حجَّاته، اقترض مِنْ بعض التجار هناك خمسمائة دينار أو أكثر، فتصدق بها عليهم، بل هو الذي قرَّر لهم المستجدَّ، وهو قدرٌ زائدٌ على ما كان لهم قديماً، بل أحدث لهم أيضاً القدوم، وهو أنَّه عند ورود الواحد منهم إلى الديار المصرية، يُصرف له ما يناسبه على قدر مرتبته مما يحصُل له به غاية الارتفاق، فجزاه الله خيراً ورحمه.

وبلغني ممَّن أثِقُ به أنه دفع للشَّيخ العارف العلامة شمس الدين البوصيري، سرّاً فيما بينهما عند توجهه للحج في بعض المرات، وذلك قريباً من سنة عشرين وثمانمائة، مالاً جزيلاً ليفرِّقه على فُقراء مكة، وأسرَّ له أنَّ ذلك مِنْ وصيه ابن الكمَاخي. قال: فاشترى الشَّيخُ به دقيقاً، وفرَّقه على أهل مكة.

---

(١) في (ط): «ناصر الدين»، خطأ. وانظر الضوء اللامع ١٠/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) هو أسد الله بن لطف الله بن روح الله بن سلامة الكازووني ثم الشيرازي، مترجم في الضوء اللامع ٢/ ٢٧٩.

واتفق أنَّ بعض الأعداء تكلَّم في جانب صاحب التَّرجمة بسبب التَّرِكَة المذكورة، وما دفع عَنْ نفسه بذلك، والله يعلمُ المفسدَ مِنَ المصلح.

ومع إحسانه للغُرباء، كان يُنكر على أهل مصر مزيد إفراطهم في تعظيم مَنْ يرِدُ عليهم مِنَ الغُرباء، مع إهمالهم لمَنْ هُو في بلدهم ممَّن هو أرفعُ بكثيرٍ، حتَّى رأيتُه كتب بخطه في ترجمة ابن الفناري الذي قدِمَ مِنْ بلاد الرُّوم ما نصُّه: وأهل مصر كما قال فيهم أبو عبيد بن حربويه: (إنَّ البغَاثَ بأرضكم يسْتَنْسِرُ). انتهى. والبُغَاث: قال في «الصحاح»[1] عن ابن السِّكِّيت: طائر أبْغَث إلى الغُبْرَةِ دُوَين الرَّخَمة، بطيءُ الطيران. والمعنى: من جاوركم عزَّ بكم.

قلت: وصاحبُ التَّرجمة معذورٌ، فإنه بمجرَّد تحول الفلاح ونحوه مِنْ ذوي الكثافة وغلظ الطَّبع في إكرامهم ومزيد إنعامهم، بحيث يَنسى ما كان فيه مِنَ الذُّلِّ والخمول والأحوال التي شرح تفاصيلها يطولُ، يأخذ في عداوتهم، والفحص عمَّا لعلَّه يتَّفق مِنْ عثراتهم واحداً بعد واحدٍ، ويلصق بأهل مصر كل ما يتخيَّلُه مِنَ المفاسد، وهذا ممَّا يشهد له قولُ إمامِنا الشَّافعي رحمه الله: ما أكرمتُ أحداً فوقَ مقدارِه، إلاَّ اتَّضع مِنْ قدري عنده بمقدارِ ما أكرمتُه به.

ونحوه القول بأن ثلاثةً إن أكرمتهم أهانوك، منهم الفلاح.

[برُّه بشيوخه:]

وأما بره بشيوخه، فوراء العقل، حتى إنه همَّ بتتبع شيخه الحافظ نور الدين أبي الحسن الهيثمي في كتابه «مجمع الزوائد»، فبلغه أنَّ الشيخ تأثَّر مِنْ ذلك، فرجع مراعاةً لخاطره.

وكذا برُّه لأبناء شيوخه وذوي البيوت، بل طلبة العلم، فغير مُنكَرٍ، حتى ولو كان ابنُ الشَّيخ يُؤذيه. وبالله لقد همَّ الظاهر جقمق أن يفعل بكلِّ

---

(١) في (ب، ط): «الصحيح»، تحريف.

مِنْ قاضي القُضاة علم الدين وابن أخيه القاضي تاج الدين في وقتين مختلفين أمراً مهولاً، فطلع مِنْ فوره إلى السُّلطان، وتوسل إليه في كل منهما بكلِّ طريق في إبطال ذلك، مع مشقَّة إبطاله على السُّلطان في أحدِهما، حتَّى تمَّ. وكلَّمه مرَّةً أخرى في أوائل ولايته مِنْ سنة اثنتين وأربعين في كائنةٍ مُفْتَعَلةٍ في حق آخر من أقرباء قاضي القُضاة علم الدين فما خالفه، بل قال له: والله لولا أنت، لكنتُ حرقتُه بالنَّارِ لما صنع، والله يأخذ الحقَّ ممن افترى على المشار إليه. وقرر عند السلطان ما كان سبباً لبلوغه إلى هذا الحدِّ، هذا وقريبُه لم ينفعُه في هذه الكائنة بشيء.

واتَّفق مرَّةً أنَّ السُّلطان أيضاً حلف ليضربنَّ شخصاً معيَّناً مِنْ أبناء العُلماء ألف عصا، فراجعه في إعفائه والصَّفح عنه، وأنَّه يُكَفِّرُ عَنْ يمينه، فامتنع، فلا زال يتلطَّفُ به حتى أمر بجمع عيدان، فضرب بها دفعةً واحداً بعد أن قرأ قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

ومن إكرامه لذوي البُيوت ـ لا سيَّما العلماء وأهل الولايات منهم ـ ما صنعه مع السيد علاء الدين محمد ابن السيد عفيف الدين محمد الإيجي، حيث قدم عليه قصداً للأخذ عنه مِنَ البلاد النائية، فإنه تفرَّغ له حتَّى قرأت له[1] عليه في ثلاثة أيام عليه شيئاً كثيراً، بل وحدَّثه مِنْ لفظه ببعض ذلك، وناوله كثيراً مِنْ مروياته ومصنَّفاته، وتأدَّب معه إلى الغاية، وأهدى إليه بعضَ الكتب. وقال له: المناولة في هذا أقربُ إلى الصِّحَّة، يعني لكونه لم يسترده.

[والتمس منه السيد زين الدين[2] عبد اللطيف بن أبي السُّرور[3]

---

(١) في (أ): «قرأت عليه»، وفي (ب، ط، ح): «قرأت له»، والصواب ما أثبت فيما أظن، فإن المصنف قال في ترجمة الإيجي من الضوء اللامع ٩/ ٢٣٢: إنه قصد ابن حجر بالرحلة «وسمع منه وعليه بقراءتي أشياء...».

(٢) كذا في (ب، ط)، وهو في (ب) بخط المصنف، وفي (أ، ح) والضوء اللامع ٤/ ٣٣٣: سراج الدين.

(٣) في (أ): «عبد اللطيف أبو السرور»، خطأ. وأبو السرور لقب أبيه الذي ترجمه المصنف في الضوء اللامع ٨/ ٤١، وكذا هو في إتحاف الورى بأخبار أم القرى للنجم ابن فهد ٤/ ٤١٣.

محمد ابن الشيخ زين الدين عبد الرحمٰن الحسني الفاسي المكي قريب صاحبه التَّقي الفاسي حين قدِمَ عليه الإخبار بنسَبِه، فكتب في محضر[1] عمل مِنْ أجله مستنداً في ذلك إلى الاستفاضة ما نصُّه: الأمرُ على ما نصَّ وشرح فيه مِنْ نسبه مُنهيه للسَّيِّد أمير المؤمنين: أبي محمد الحسن بن علي رضي الله عنهما، وكتب أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن حجر عفا الله تعالى عنه آمين.

وثبت بأخباره مع غيره عند بعض النُّوَّاب، وكان ذلك قبل استقراره في القضاء الأكبر بأشهر.

وقد سبقه لمثل ذلك الإمام أبو محمد بن أبي زيد المالكي صاحب «الرسالة». وكذا شهد غيرُ واحد في محضر[2] متضمن لنفي طائفة مخصوصة عَنِ الشَّرف؛ منهم: أبو حامد الإسفرايني الشافعي، وأبو الحسين القُدوري الحنفي ـ وناهيك بهما ـ في جماعة مِنَ العُلماء والسَّادة[3].

وقدم عليه عبد الله بن محمد بن عمر بن أبي بكر بن عبد الوهاب بن علي بن نزار الظَّفاري، الذي كان جد أبيه انتزع ظفار من يد صاحبها وحيداً فقيراً، فشكا إليه حاله، فبرَّه وأحسَن إليه[4].

وكذا قدم عليه العلامة محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق حفيد العالم، فأتحفه «بشرح الشفا» لجده العلامة المفنَّن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق بخطِّه، وسُرَّ به سروراً كثيراً.

قلت: وهذا «الشَّرح» ما رأيتُه.

وقد كتب عليه بعضُ المغاربة أيضاً ـ وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم التَّجاني شرحاً حافلاً، لكنه لم يُكمله، والموجود منه في أوقاف المؤيَّدية مِنْ أوله إلى بعد قوله: «فصل في

---

(١) في (أ): «مختصر»، والمثبت من (ب) من خط المصنف.
(٢) في (أ): «مختصر»، والمثبت من (ب) من خط المصنف.
(٣) من قوله: «والتمس منه السيد..» إلى هنا، ورد ملحقاً في هامش (ب) بخط المصنف.
(٤) انظر إنباء الغمر ٧/ ٤٤٠، والضوء اللامع ٥/ ٥٩ ـ ٦٠.

حُسْنِ خُلقه ﷺ» في نحو خمسة عشرَ كرّاساً.

وللتّاج أبي محمد عبد الباقي بن عبد المجيد بن هبة الله بن متّى القرشي اليماني نزيل طيبة[1] تعليق على «الشفا» في نحو ثلاث كراريس سماه «الاكتفا في شرح ألفاظ الشفا».

ونحوه في الحجم مصنَّف للشيخ شهاب الدين بن رسلان الرَّملي.

وأوسع منهما وأفيد كتابُ حافظ حلب البرهان سبط ابن العجمي في مجلد، سئل صاحب الترجمة كما تقدم في سدِّ ما فيه مِنَ التراجم المبيض لها، وقد اختصر منه مع زيادات شيخُنا العلامة التقي الشُّمُني كتاباً لطيفاً يكون في نحو نصف حجمه، انتفع الفضلاء به.

وعمل القاضي علاء الدين بن أقبَرس على «الشفا» شرحاً في مجلدين يقال: إنه تعبَ فيه.

وللشَّمس محمد الحجازي مختصِر «الرَّوضة» عليه مؤلَّفٌ في أكثر مِنْ ستة كراريس.

وكذا لابن العُمُك[2] ـ وأظنُّه يماني ـ مؤلَّفٌ على «الشفا» في أربعة كراريس.

وكل هذا استطراد لكن لا بأس به.

[ستره:]

وأما ستره فحكي لي أنَّه بينما هو في حلقته وعلى طرف بساطه صُرَّة فيها مبلغ كبير، إذ تقدَّم إليه شخصٌ ممَّن له وَجَاهَةٌ، فتحدَّث معه واختلس في غُضون جلوسه معه تلك الصُّرَّة، ظانًّا أنَّ صاحبَ التَّرجمة في غفلة عَنْ ذلك، وقام. فهمَّ بعضُ مَنْ رآه ممَّن كان واقفاً في خدمة شيخنا بالتكلُّم، فأشار إليه يمنعُه مِنْ ذلك، وقال: لولا بلوغُ أمرٍ شديد بهذا الرَّجل ما أقدم على مثل هذا.

---

(١) في (ب): «المدينة».

(٢) كذا ضبط بضم العين والميم، وضبطه الزبيدي في «تاج العروس» ٧/ ١٦٤ بفتحهما، فقال: بنو العَمَك: قبيلة من الرماة من بني غافق باليمن، وبلدهم موضع يقال له: البسيط، غربي اللامية من ضواحي سهام، وقد خرب. ومنهم: الفاضل يحيى بن إبراهيم العَمَكي، أحد المؤلفين في فنون العلوم. ذكره الناشري النسابة.

[صبره على الطلبة]

وأما صبره على الطلبة، فشيءٌ لا يُدْرَكُ وصفُه، حتى إنَّه مكث في مرض موته مدَّةً وهو لا يُعْلِمُ بعضَ مَنْ يقرأ عليه ليلاً بذلك، مراعاة لخاطره، وهو يتحمل المشقة إلى أن أعيى، فأعلمه بلطف.

[عاريته للكتب]

وأما عاريته للكتب، فأمرٌ انفرد به عَنْ سائر أهل مصره، حتى لا أعلم نظيره في ذلك، بل كان يعيرها لمن يُسافر بها، وربما افتدى كتب المحمودية التي تحت نظره بها. حتى كان رحمه الله يقول لي: لا تأْخُذ مِنْ كتب الخزانة إلا ما ليس في كُتبي، بل أُقسِمُ بالله أنَّه نهاني [في وقت][1] عن الاستعارة من غيره.

ورأيت معه في رمضان من السَّنة التي توفي فيها مجلداً كنتُ أحبُّ الوقوف عليه، فالتمستُ منه عاريته بعد فراغ أربه من مطالعته، فقال: نعم. ومضى بقيَّةُ الشَّهر وشوال وذو القعدة، واتفق دخولي مع الجماعة لعيادته في ذي الحجة، فأشار إليَّ فأخذته مِنْ بين كتبه. هذا وهو ضعيف، وقد مضى من سؤالي له نحو ثلاثة أشهر ولم ينسَ ذلك. وبالله قد رأيتُ بعض أصحابنا تأثر مِنْ ذلك، فإنا لله.

وأرسلت إليه مرة أطلبُ منه نسخةً مِنْ بعض الأجزاء الحديثية مُفْرَدَة، فكأنه ما تيسَّرت له إذ ذاك، فقطع نسخةً بخطه من مجموعٍ مِنْ مجاميعه، وأرسل بها إليَّ في الحال. وكأنه ـ والله أعلم ـ فهم توجُّهي بها لبعض الأماكن البعيدة، وقصدت خِفَّة الحمل.

ولم يكن غالباً يمضي يوم مِنَ الأيام إلا وأستعيرُ منه شيئاً مِنَ الكتب، وهو يُسْعِفُ بكلِّ ما ألتمِسَهُ منه مِنْ ذلك، ولا يُظْهِرُ مُللاً، بل والله لو لم أفهم منه محبَّة ذلك. ما أكثرتُ منه.

---

(١) ساقطة من (ب).

واستعرت منه مرة «معجم شيوخه»، وذلك بعد أن حصل عليه[1] بسببه مِنْ بعض الأعداد ما أسلفتُ الإشارة إليه، وصار هو لا يسمح به لكلِّ أحدٍ، حتى إنَّ شيخنا العلاَّمة ابن خضر كان كتب منه قديماً قطعةً، فما تيسر له إكمالها، فأقام عندي مدَّةً، ثم طلبه منِّي قبلَ أن أكتبَه أو شيئاً منه، ودعت ضرورةٌ إليه ثانيةً عن قُرْبٍ، لكنني استحييتُ منه، فكتبت له في قائمة الأسماءِ التي اضطررت للكشف عنها منه أطلب الوقوف عليها، وفي ظنِّي أنَّه يكتُبها لي بخطه جرياً على عادته معي في كثيرٍ مِنَ الأحاديث والتَّراجم والأسانيد التي كنتُ ألتمسُها منه، فيكتبها لي بخطه. فبمجرَّد أن دخل القاصدُ إليه، عاد و«المعجم» معه، فسُررت به كثيراً، ورجعت مِنْ فوري، ففككته مِنَ الجلد، وتجردت فكتبت منه التراجم دون الأسانيد، اكتفاءً بالفهرست، مع تنبيهي في كلِّ ترجمة على أسماء ما ذكر فيها مِنَ المرويات. وتمَّ في أيام يسيرةٍ أظنُّها أربعة، وجئته به، فقضى العجب مِنْ ذلك، وسألته في فهرست الكتاب بخطه ففعل.

ولو شرحتُ ما اتفق لي معه مِنْ ذلك، لقضي العجب، فكيف بغيري مِنْ جماعته، بل كان شديدَ الإنكار على من يبخل بعارية الكتب، بحيث سمعته مرة يقول: أرسل إليَّ القاضي بدر الدين بن التِّنسي المالكي يطلب «السُّنن» لأبي داود ليحدث به، فأعلمته بأنَّ النُّسخة التي عندي بخطي، وتعسُرُ القراءة منه غالباً على من لم يكن مِنْ أهل الحديث[2]، لكنه كان عنه الأمير تغري برُمش الفقيه نسخةٌ موقوفةٌ بخط المحدث أبي العباس أحمد، الملقب بالملك المحسن ابن السُّلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو وإن كان الآن في بيت المقدس فهي عند فلان، وسمَّى له بعض أصحابنا المحدثين، وقال له: إنه يطلبها منه، فأرسل إليه فأنكر وجودها، وقال: إنَّها عند الأمير،

---

(١) «عليه» ساقطة من (ب).

(٢) في هذا إقرار من الحافظ ابن حجر رحمه الله برداءة خطه، لا كما ادعاه تلميذه المصنف مراراً في كتابه هذا من جودة خط شيخه، وأنه كتب الخط المنسوب كسلاسل الذهب! ومن رأى خط الحافظ، رحمه الله يتبين له ذلك.

مع كون سِبْطي[1] استكتب منها في هذه الأيام نسخة، وفرغت أمس، وأعادها إليه، وصار يقضي العجب مِنْ ذلك، ويقول: هذا وهي وقفٌ، فلو كانت ملكاً، ماذا كان يفعل؟ قلت: يحلفُ بالطلاق، إنَّه ما اشتراها لنفسه، وإنَّما وكلَّهُ بعضُ مَنْ حلَّفه أن لا يسمِّيه. قال شيخنا: وحينئذٍ أرسلتُ إليه بنسختي، مع شدة احتياجي إليها حتى لا يتوهم فيَّ أمراً.

قلت: وكذا اتَّفق أنَّ القاضي بهاء الدِّين ابن العلاَّمة شمس الدين ابن القطان رام أن يحدِّث بكتاب «السنن» لابن ماجه، فبلغه أن عند هذا المبهم[2] نسخة الوقف بالخانقاه البيبرسية، وهي أصلٌ معتمد، فتوجَّه إليه مرة بعد أخرى، فما سمح له بها، فجاء صاحبُ التَّرجمة، وحكى ذلك له، فدفع له نسخته مع احتياجه للمراجعة منها. رحمهما الله وإيانا.

وقد ضاع له بسبب ذلك شيءٌ كثير جدًّاً، بحيث أخبرني في سنة إحدى وخمسين أنه فقد مِنْ كتبه ما ينيفُ على مائة وخمسين مجلدة، وربما بيعت في السُّوق ويشتريها، ورأينا بعد نحو عشرين سنة مِنْ وفاته شيئاً مِنْ نفائس كتبه التي كنتُ أتلهَّفُ على الوقوف عليها عند بعض مَنِ استعارها، فاستمرت عنده حتى بيعت في تركته[3]، ومشى أمرها.

واتفق أنه سُرِقَ لبعض طلبته مِنْ خزانته بالمدرسة المنكوتمرية أوراقٌ مع مجلد لصاحب التَّرجمة مِنْ «شرح البخاري»، ووُجِدَ ذلك مع شخص، فأحضروه بين يديه، وأخذ بعضُ الحاضرين يلتمس منه الاعتراف بالسَّرقة، وصار شيخُنا يشيرُ لنقيبه يأمرُه بعدم الاعتراف. رحمه الله وإيانا.

ومن شدَّة رغبته في العاريَّة: أنَّ القاضي ناظرَ الجيش الزين عبد الباسط رهن عنده كتباً في بعض نكباته، فاستأذنه شيخُنا ـ لوفور ديانته ـ في إعارتها لمن لعلَّه يلتمس شيئاً منها، فأذن له، وكنت أعرفُ منها نسخةً

---

(١) يعني يوسف بن شاهين الكركي، المتوفى سنة ٨٩٩هـ.

(٢) هو أبو حامد القدسي كما صرح باسمه المصنف ص ١٠٢٠ من هذا الجزء.

(٣) في (ب، ط): «من تركته».

جيِّدةً، مِنَ «الاستيعاب» لابن عبد البرِّ في ستة أسفار أو أكثر، وكذا نسخة متقنة «بصحيح مسلم» في مجلد، إلى غير ذلك ممَّا يطول شرحه.

وأعلى مِنْ هذا كلِّه: أنَّ البدر العيني لمَّا شرع في «شرح البخاري»، رام استعارة «شرح» صاحب الترجمة من شيخنا البرهان ابن خضر، فتوقَّف حتى استأذنه، فأذِنَ له رغبةً في عموم النفع. هذا مع ما كان سلَفَ مِنَ البدر ممَّا ألجأ لتصنيف «الاستنصار». رحمة الله عليهم.

[اهتمامه بطلبته]

وأما تنبيهه الطلبة على مَنْ ببلده[1] من شيوخ الرِّواية، وإعطاؤه إياهم الأجزاء والكتب المروية لهم، فعندي مِنْ أخباره في ذلك جملةٌ. وطال ما دفع إليَّ الأجزاء العالية يأمرني بقراءتها على العز بن الفرات. وربما شكوتُ إليه جَفْوَتَه وعدمَ طواعيته لي في القراءة لما أرومه، فيكتب له يرغِّبُه في التحديث ويحثُّه عليه، ويؤكِّدُ عليه في الاهتمام بشأني، حتى كان العزُّ يتبجَّح بذلك. وكثيراً ما كان يكتُب لي بخطه أسانيد للعزِّ وغيره، بل تراجم جماعة مِنَ الشُّيوخ ونحوه[2] بخطه، كما أشرت إليه قريباً مما يقضي العجب من ذكره، فكيف برؤيته.

وبالله كلَّما تذكَّرتُ هذا وشبهه مِنْ إقباله عليَّ وإحسانه إليَّ، يتصدَّعُ قلبي، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكنتُ في خدمته مرة[3] على العادة بالمدرسة المحمودية، فعند إرادتي الانصراف قال لي: إلى أين؟ فقلت: إلى ابن الجمال الأميوطي لسماع «سيرة ابن سيد النَّاس» عليه. فقال: على من سمعها؟ فقلت: مِنْ لفظ أبيه، وأبوه ـ كما في شريف علمكم ـ مِنْ لفظ المؤلِّف. فقال لي: سماعٌ عظيمٌ. وإنما قصد بذِكْرِ ذلك ـ مع كونه هو الواقع ـ الترغيب في سماعها منه.

---

(١) في (أ): «بيده»، خطأ.

(٢) في (أ): «ونحوهم».

(٣) «مرة» ساقطة من (ب).

وكنت أقرأ عليه يوماً بعض الأجزاء التي شاركه نقيبه القاضي شهاب الدين بن يعقوب في سماعها، وهو واقف بخدمته على عادته، فقال له: اجلس، فإنَّ لك في هذا الجزء مشاركة، والتفت إليَّ، فنبَّهني لذلك.

وسمعنا عليه بمشاركة أمِّ أولاده وقريبه الزَّين شعبان، بل بموقعه ناصر الدين ابن المهندس، بل بتلميذه ابن سالم، إلى غير ذلك، ممَّا كان الأوْلى بنا خلافه، لكن شَرَه الطَّلب أدَّى إلى ذلك، لا سيما مع العلم بأنَّه لا يخدش في جلالته، بل ولا يحصُلُ له بذلك أدنى تأثير.

وأخبرني مستمليه الشَّيخ أبو النعيم رضوان رحمه الله ـ وهو ممَّن سمعنا عليه أيضاً بمشاركته ـ أنَّه لم يَلْقَ في ذلك أكثر نُصحاً، ولا أحسنَ بِشْراً، ولا أجملَ طريقةً منه. وقال: إنَّه مكث مدَّةً يراجع بعض الحُفَّاظ مِنْ شيوخه في جزء انفرد به بعضُ المسندين، فما تيسَّر له إعطاؤه إياه، إلى أن علم صاحبُ الترجمة، فبادر إلى إعطائه له.

وكم مِنْ مُسْنِدٍ استدعى به إلى مجلسه لإسماع الطلبة عليه؛ كالواسطي والدَّنديلي والشمس البَيْجُوري. بل قرأ بنفسه على بعضهم.

وعندي أنه ما قرأ خصوص «صحيح مسلم» على ابن الكويك إلا لتنتشر روايته فيه، وإلا فهو كان قد أخذه قديماً عن البالسي بمثل سماع ابن الكويك سواء. وكذا تخريجه «المشيخة الباسمة للقبابي[1] وفاطمة» ما أراد بها إلا إعلام طلبته بذلك، ونحوه تخريجه «مشيخة البرهان الحلبي»، إلى غير ذلك ممَّا لا أستطيع حصرَه.

وسأله صاحبُنا الجمال بن السَّابق الحموي ـ جمَّل الله بوجوده ـ في سنة سبع وثلاثين ـ كما حكاه لي ـ أن يرشِدَه لأعلى الموجودين إسناداً، فذكر له البدر حسين البوصيري، والزَّين عبد الرحمن الزركشي، وعائشة ابنة القاضي علاء الدين الكناني أم قاضي المذهب وعالمه العز الحنبلي، وقريبتها فاطمة. وقال له: إذا سمعت من هؤلاء، تكون مساوياً لي في كثيرٍ مِنَ المرويات.

---

(١) في (أ): «القباني»، تحريف.

وكلُّ هذا يسيرٌ بالنِّسبة لما أودعه الله عز وجل في قلبه مِنَ النُّصح والرَّغبة في نشر العلم. ولذلك نشر إليه ذكره في الآفاق، ورفعه إلى المحلِّ الأعلى، بل وراء هذا كلِّه أنه لم يحدِّث «بصحيح مسلم» ـ فيما علمتُه ـ إلاَّ بعد وفاة الشَّيخ زين الدِّين الزركشي، خاتمة أصحاب البياني فيه بالسماع، لكونه كان أعلى سنداً منه.

[استجلاب الخواطر]

وأما استجلاب الخواطر، فكلُّ ما ذكرناه مُقتضٍ لذلك مِنَ الحلم والبَذْلِ والشَّفقة والسَّتر، وكفى بها دلالة على حُسْنِ العِشْرة. وطال ما كان ينهرُ أتباعه بسبب مقته بعض الطَّلبة، لظنِّه أنَّ ذلك يرضيه، وربَّما قال له: اخرج أنت ودعه. إلى غير ذلك مما يكتفي بدونه مِنْ مثله في علوِّ مقداره، وطال ما كان يخُصُّ مَنْ يفهم عنه بعضَ جفاء بمزيد الإقبال، بحيث لا يفارقه إلا وهو في غاية الحمد والاغتباط، فمنهم مَنْ يستمرُّ على المودَّة، ومنهم مَنْ يغلِبُ عليه الحسَدُ.

وبلغني عَنْ بعض الفُضلاء ممَّن كان هواه عند غيره أنه كان يقول: من العجيب أنَّني بمجرَّدِ لُقِيِّ الذي أهواه أمقُتُه، فإنه يبادرني بمدِّ يده، وصاحبُ الترجمة لا ينقضي مجلسي معه إلا وقد ملكني بلذيذِ خطابه، وكثرة آدابه، وبديع محاضرته، ولطيف محاورته.

[تواضعه:]

وأما التواضع: فإلى غاية يكون في ذلك النهاية. ولقد كنتُ جالساً معه مرَّة، فخدرت رجلُه، فأراد أن يقوم فأشار إليَّ أن آخُذَ بيده، ففعلتُ وحرَّك رجله قليلاً، فوقع في خاطري تقبيلها، فتأثَّر مِنْ ذلك إلى الغاية، وهكذا كان دأبُه، لم يكن يُمكِّنُ أحداً مِنْ تقبيل يده إلا بجهدٍ، مع أنَّه ـ فيما بلَّغنيه بعضُ مَنْ شاهده ـ قبَّل يدَ شخصٍ مِنْ قُدماء مَنْ أخذ عنه ممَّن أكثر مِنْ قراءة الحديث والعناية به[1] لتوسُّم الخير فيه.

وكان عند إرادة دخول بيته عَقِبَ الدَّرس أو غيره، يقفُ مع مَنْ يقصدُ

---

(١) «به» ساقطة من (ب).

الاجتماع به ـ ولو لم يكن بذاك ـ نحو ساعة أو أكثر، بحيث[1] يمل أتباعه وهو واقف، لا يُفارقه حتى يكون هو المفارق له.

ولقد كنت والله العظيم أجيءُ إليه، وأنا حينئذٍ في المكتب، فأعارضه وهو يريدُ الدُّخول إلى منزله، فيقف معي[2] ما شاء الله حتى أسأله عَنْ ما أرومُ المسألة عنه مِنْ أحاديث وغيرها، بل ربَّما سألتُه إذ ذاك في كتابة أشياء، فيكتبها لي بخطِّه ممَّا هي عندي الآن.

وكان رحمه الله لا يتكثَّر بعلومه، ولا يتبجَّح بها، ولا يفتخر، ولا يباهي بمعارفه، بل كان يستحيي مِنْ مدحه ويُطرِقُ، ولقد قال له بعضُ طلبته مرة: يا سيدي، إنَّ لك بفتح الباري المنَّةَ على البخاري، فقال له، قصمت ظهري، أو كما قال.

ومن تواضعه ـ كما أسلفته في أواخر الفصل السادس من الباب السادس[3] ـ أنَّ بعضَ الفُضلاء التمس منه قراءة كتاب في أصول الفقه، وأظنُّه «شرح جمع الجوامع» له، وكرَّر الطَّلب لذلك، فصار شيخُنا يُبدي له أعذاراً، كان مِنْ جملتها: جهدي أتفرَّغُ لإلقاء العلم الذي يُقال إنَّني أعرفه. ونحوه كما تقدم أيضاً قوله في فن القراءات: بضاعتي في هذا الفن مزجاة. هذا مع كونه أستاذاً في كل فنٍّ بحُسْنِ ذكائه. وأما في الحديث فهُناك تخضعُ له الرِّقاب، لكنه أراد مزيدَ التواضع. وفي الواقع أن أوقاته كانت تضيق عَنْ ذلك.

ونحو ذلك أنَّه لمَّا أملى بالكَّاملية، ثم انتقل منها إلى البيبرسيّة ـ كما أسلفتُه ـ لقيه ناصر الدين محمد بن عمر الشَّيخي نزيل الكاملية وصهر ناظرها، فقال له: يا سيدي، أوحشت الكامليَّة، فأجابه بقوله: الكاملية مشتقَّةٌ مِنَ الكمال، يعني: ولستُ كاملاً.

ومن تواضعه أيضاً: أنَّه لم يكن يذكر أحداً مِنْ طلبته ولو صَغُرَ إلا بصاحبنا فلان. وما كنت أظنُّه يقصِدُ مع التواضُع بذلك إلا التَّنويه بذكرهم. ولعمري لقد انتفع جماعةٌ من طلبته وغيرها بتربيتهم والثناء عليهم، ومنهم

---

(١) «بحيث» ساقطة من (أ).

(٢) «معي» ساقطة من (ب).

(٣) ص ٩٥٥.

الشيخ برهان الدين السُّوبيني، فإن الظاهر أرسل يسألُه في تعيين أحدٍ مِنْ جماعته لقضاء مكَّة فعيّنه، ورفع مِنْ مقداره إلى الغاية حتَّى ولاه، وتنقَّل لغيرها مِنَ البلاد كالشَّام وحلب، ولمَّا عيّنه لذلك، راسل القاضي أبا اليُمن بالوصية به، مفتتحاً الرِّسالة بقوله: إنَّه مستمرٌّ على المحبَّة والثَّناء والدُّعاء. قال: وقد توجَّه إلى مكَّة الشَّيخ برهان الدين السُّوبيني، وهو مِنْ أهل الخير والعلم، فيكون نظركم عليه، فإنه غريب، وليست له نيَّةٌ في الإقامة سوى مجاورة هذه المدَّة التي في بقية هذه السَّنَةِ.

وكتب له أيضاً ما نصُّه: إنَّه مستمرٌّ على الدُّعاء والمحبَّة، وقد وصل مشرفكم، وفيه ذكر القاضي الجديد، والذي يعلم به أن الحامل على تعيين هذا أنَّ العبد وجد صاحبَ الأمر في غاية التَّصميم على منع تولية أحدٍ مِنْ أهل مكة هذا المنصب، وسببه اختلاف أغراض السَّاعين لمن يحصل منهم السَّعيُ له، فكلٌّ يطري صاحبه بما ليس فيه، ويُبالغ في الغَضِّ مِنْ غيره، فتعارضت الأحوال وتساقطت، واحتيج للإصلاح بين الجميع بتولية أجنبي، وهذه عادة قديمة لا تنتج غالباً إلاَّ جرَّ الخير لمن يستحقُّ الوظيفة مِنْ أهل تلك البلدة، فيعود الأمرُ إليه، ويندفع الاعتراضُ. وقد وصل كتاب الشيخ برهان الدين ـ يعني السوبيني ـ ولسانُه رطبٌ بالثَّناء عليكم والدُّعاء لكم، حتى إن فيه أنه لم يجبر خاطره أحدٌ مِنْ أهل البلد غيرُكم، وهذا غايةُ الثَّناء. والمسؤول مِنْ فضلكم إبلاغُ السَّلام على الولد العزيز ـ يعني الشيخ نور الدين أحد طلبة صاحب الترجمة ـ وتعريفه أنَّه يتفضَّلُ بإعلام العبد بسيرة القاضي برهان الدين هذه المدَّة، وهل ظاهرُه فيها كباطنه، وسرُّه كعلانيته، إلى آخر كتابه.

قلت: وقد أثنى صاحبُ الترجمة على السُّوبيني بقوله في حرف السِّين المهملة مِنْ «تحرير المشتبه»[1] له: وبمهملة، وبعد الواو موحدة مكسورة،

---

(١) لم أجد هذا النص في «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» وقد نقل بعضه المصنف في ترجمة السوبيني من الضوء اللامع ١/ ١٠١ ولم يعزه لكتاب. ثم تبين لي أن هذه الترجمة سقطت من المطبوع من الكتاب، وكان ينبغي أن تكون في (٢/ ٧٥٩) منه. وقد وجدتها في نسخة مخطوطة محفوظة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، رقمها ٢٨٥، والنص في الصفحة ١١٧ منها، ويعمل الأخ الفاضل محمد زهرا على تحقيق هذا الكتاب من جديد.

وتحتانية ساكنة، ثم نون: صاحبنا الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الحموي، ثم السُّوبيني ثم الطرابلسي، نسبة إلى سُوبين، من قرى حماة، شافعي المذهب، كثير المعارف في عدة علوم، رأس في الفرائض، وهو اليوم عالم طرابلس، يشغل في فقه الشَّافعية والحنفية، وحجَّ فقدِمَ علينا سنة أربع وأربعين وهو في الخمسين، دام النفع به. وذكر لي أن جدَّه لأمِّه الشيخ عمر السوبيني كان صالحاً، له كرامات، ثم ولي هو قضاء مكة، ثمَّ حلب، ثم رجع إلى طرابلس.

وكذا نوه بالعلاَّمة نور الدين بن سالم حتى ولي قضاء صفد، واستمر بها حتَّى مات.

وبالقاضي قطب الدين الخيضَري حتى يتنَّبه المرجوع لهم في الولايات والعزل إليه، وصار إلى ما صار، ولم يكن هذا قصده بالتَّنويه، والأعمال بالنيات.

ولما فُتحت المدرسة الأشرفية برسباي، وحضر واقفها فيها، كان صاحبُ التَّرجمة ممَّن حضر، واستحضر معه مستمليه الزَّين رضوان العقبي، فقال الشَّيخ للسلطان مشيراً للمدرسة: هذه جنَّةٌ ويحسُنُ كون رضوان خادمها، فقرَّره في خدامتها الكبرى لحسن هذا التوسُّل][1].

وممَّا نقلتُه مِنْ خطِّه في تاريخ «إنباء الغمر»[2] ما نصه في سنة ثلاث وأربعين: ورحل إلى القاهرة طالبُ حديثِ الفاضلُ البارعُ قطبُ الدِّين محمد بن محمد بن عبد الله بن خَيضر بن سليمان بن داود بن فلاح[3] بن ضُمَيْدَة البلقاوي، ثم الدمشقي، ويعرف الآن بالخيضري، نسبةً لجدِّ أبيه، فسمع الكثير، وكتب كتباً كثيرة وأجزاءً، وجدَّ وحصَّل في مدة لطيفة شيئاً كثيراً، وتوجَّه صُحبة الحاجِّ المصري لقضاء الفرض، وكتب عنِّي في مدة يسيرة المجلد الأول من «الإصابة في تمييز الصحابة» وقرأه، وعارض به

---

(١) ما بين حاصرتين لم يرد في (ب، ط).

(٢) ١٠٩/٩.

(٣) في (ب، ط): «صلاح»، تحريف.

معي وأتقنه، ونسخ أيضاً «تعجيل المنفعة في رجال الأربعة»، وقرأه كلَّه وأتقنه، وسمع عدَّة أجزاء، وكتب عدَّة مجالس من «الأمالي»، وخطُّه مليح، وفهمُه جيد، ومحاضراتُه تدلُّ على كثرة استحضاره. انتهى.

وسأله القطب في أشياء، منها: الإذن له بالإفتاء والتدريس فما أجابه، [بل وعده بالإجابة][1] في وقت عيَّنه له حسبما كتبه صاحب الترجمة بخطه.

وكذا التمس منه الكتابة على «طبقات الشافعية» من جمعه، فأجابه بما حاصله أنه كان اللائق به نسبة ما جرَّده مِنْ حواشي نسخته «بالطبقات الوسطى» للتاج السبكي إليه، في كلام فيه طولٌ، يدلُّ على مزيد تأثُّرٍ منه يتضمن عتباً زائداً، لا سيما حين رآه ينقل عن المقريزي أشياء إنَّما عُمْدَةُ المقريزي فيها على شيخنا. قال:

ولـم تـزل قـلَّـة الإنـصـاف قـاطـعـةً بـيـن الـرجـال ولـو كـانـوا ذوي رَحِـمِ

ونوَّه أيضاً بكلٍّ مِنَ البدر زين ابن التنسي المالكي، والبغدادي الحنبلي حتى ولي قضاء مذهبه استقلالاً.

وكذا نوَّه بالقاضي عز الدين الحنبلي، بحيث راج ذكره بسبب ذلك، كما أسلفته في الباب الثاني.

وكان رحمه الله ـ ولي كما أسلفت في الباب الرابع ـ ربما نزل لبعض طلبته أو أصحابه عمَّا يكونُ باسمِه مِنَ الوظائف السَّنِيَّة، قصداً لاشتهار أمرهم، لا سيما فيما لا يكون لهم به شُهرة ممَّا يعلم هو تحقُّقَهم به، كما وقع له مع العلامة البدر بن الأمانة والشهاب بن المحمَّرة، حيث نزل للأوَّل ـ كما مضى ـ عن درس الحديث، وللثاني عن درس الفقه، وقيل: لو عكس، لكان أمسَّ، فقال: إنَّما أردتُ اشتهارهما بما لا شُهْرَة لهما به مما يعلمانه.

وكتب ورقة للظاهر يُثني فيها على بعض طلبته، ويعرفه بفاقتِهِ، رجاء إحسانه إليه وعطفه عليه.

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (أ).

ومرَّةً أخرى للشيخ علي الخراساني المحتسب، ليكون واسطة بينه وبين الظاهر، وافتتحها بقوله: القضائي الشَّيخي النُّوري العبد أحمد يقبِّل الأرض، مبتهلاً بالدُّعاء الصالح لمولانا، ومذكِّراً له بما كان كلَّمه قديماً بسبب المائل بها، ثمَّ أثنى عليه. قال: والمقصود الأعظم تحصيلُ ما يكُفُّ به وجهه عن السؤال، بحيث يكون راتباً جارياً لكفايته، وسبباً متَّصلاً بتحصيل عِفَّتِه، وأجراً وافياً يضيءُ نورُه لمن ساعده في صحيفته.

ومرة أخرى إلى الزَّيني الاستادار. وتكرَّرت كتابته له مرَّة، بسبب الشهاب ابن أسد حتى استقرَّ به في إمامة مدرسته، ومرَّة بسبب غيره حتى استقر به في قراءة الحديث بجامع بولاق، وطالما كان يرسل مشرفاته بسبب من يقصِدُه مِنَ الطَّلبة ونحوهم في الحوائج إلى من يحصّل له غرضه، ولو كان المكتوبُ إليه منحطَّ الرُّتبة، وربما أرسل قاصدَه وتلميذه أو غير ذلك، ولا يبخل بالثَّناء على المرسل بسببه، بل يصفُه بالأوصاف الحَسَنةِ التي يرتقي بها الطالبُ بأحسنِ عبارة وأمتن إشارة، بحيث تكونُ عندَ صاحبَ الحاجة ـ غالباً ـ أشهى مِنْ قضائها، وربما أدَّاهُ سروره بتلك الألفاظ لحفظها أو كتابة صورتها. وممن أعرف الآن منهم مِنْ أصحابنا: الشيخ شمس الدين الجوجري والشَّيخ عبد الرحيم الأبناسي وأبو[1] حامد القدسي، وهو الذي أبهمتُه قريباً[2]، وابن خليل.

وفي إيراد بعض ذلك ـ فضلاً عن جميعه الذي لا تمكن الإحاطة به ـ طول.

وممَّن كتب له لكلٍّ واقفٍ عليه في سَفْرَةٍ سافرها الشَّيخ شمس الدين النَّواجي، ولجماعة مخصوصين صاحبُنا الشيخ نجم الدين بن فهد كما سيأتي عند اسمه مِنَ الباب الذي يلي هذا[3].

وكذا كتب من أجلي مرَّةً قُصَّةً كاملةً بخطه لأبي الخير النَّحَّاس، فكان مِنْ جملتها: وأنَّه مِنَ الملازمين بالاشتغال بالسُّنَّة النبوية ليلاً ونهاراً.

ورسالة للزَّيني الاستادار مرَّةً بعد أخرى في أحدهما: أنه من المهرة في

---

(١) في (أ): «وأب»، خطأ.

(٢) ص ١٠١٢ من هذا الجزء.

(٣) ص ١١٢١.

العلم والمقبلين على الحديث النبوي بخصوصه إقبالاً كلّيّاً. كلّ ذلك قصداً للتّنويه بالمكتوب بسببه، ورجاءَ لبلوغ قصده وأربه. وكذا نوّه بذكر أصغر خدامه مصنف «الجواهر» [بغير ما أوردته أيضاً مما][1] لا أتشاغل ببثّه هُنا.

ويا لهفي على فراقه إلى أن ألقاه. فماذا فقدتُ مِنْ علم وحلم وتواضع وإنصاف وبذل وبشاشة وأوصاف لا أُدرِكُ الإحاطة بها. وإذا تأمّلتَ آخر قصيدة في الفصل الخامس مِنَ الباب الذي قبلَه[2]، علمتَ شدَّة تواضُعه وهضْمَ نفسِه إلى الغاية رحمةُ الله عليه.

[انبساطه:]

وأما انبساطه، لا سيما في محالّ النُّزه، فمعلوم. وربما لعب الشَّطرنج، لكن في النادر جداً، بحيثُ لم يضبط عنه غير المرَّة والمرتين، مع كونه عاليةً فيه، يلعبُه استدباراً. فممَّا ضبط عنه لعبُه به مع الشهاب الرُّيشي أحد جماعته بالمناوات بعد أن خطمه رخّاً[3]. وزعم العالية محمد الحلوائي الملقب البُخْش، وهو من مدة تزيد على ثلاثين سنة عالية، أنه لعبه معه مرة سبع دسوت، فضله صاحبُ الترجمة بثلاثة منها، وتساوياً في باقيها، والله أعلم.

وكان يلعبُه مع صهره الشِّهاب بن مكنون في أوقات راحته. وحكى لي سبطُه أنَّه لعبه بعد سنة آمد مع بعض المعتبرين. قال: وأظنه البدر بن الأمانة.

ورأيت بخطِّ بعض الأعيان من الحلبيين ـ كما أسلفته في الباب الثَّاني[4] ـ ما نصُّه:

وأما لطائفه وملاطفته للطلبة والإحسان إليهم، فلا تكاد تُوصف، وقد كنتُ أسمع به وبأوصافه، فلما شاهدته رأيتُه فوق ذلك.

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (ب)، وأضافه المصنف بخطه في هامش (ح).

(٢) ص ٨٨٦، ومطلعها.

بـنـي عـلـي قـد تـفـاقـم وزره ... فليس على من خاض في عرضه وزر

(٣) الرخ: من أدوات الشطرنج. قاله في «القاموس».

(٤) ١/ ٣٢٢.

كانت مُسائلة الرُّكبان تخبرني عن أحمد بن عليٍّ أحسنَ الخبرِ
لمَّا التقينا فلا والله ما سَمِعَتْ أُذني بأحسَنَ ممَّا قد رأى بصري

قلت: ومن حكاياته اللطيفة التي سمعتُها مِنْ لفظه: ما حكاه لنا عن الشَّريف البدر النَّسَّابة عم الذي أخذنا عنه، وكان مِنْ جماعته، أنَّه كان شيخ البيبرسية وناظرها، فرافع فيه الصُّوفية إلى السُّلطان، فبرز أمرُهُ بالتوجُّه لقاضي الشرع، فحضر إليه القاصدُ، فاعتذر ابنُ أخيه بضعفه، فلم يقبل منه ذلك، وألزموه بإخراجه ومجيئه لمجلس الشَّرع، فحملوه، فلما جاء[1] وقع مغشيّاً عليه، فرش عليه ماء الورد، فما[2] أفاق، فقال القاضي للصُّوفية: أنتُم تدَّعُون أنَّه لا يُنفق عليكم، فهو يعتذر عَنْ ذلك بماذا؟ فقالوا: يدَّعي العمارة، فقال لهم: أليس هو شيخ المكان؟ قالوا نعم، فقال لهم: أليس شرطُ الواقف أن يكون الشَّيخُ ناظراً؟ قالوا: نعم، فقال لهم: إنَّ الناظر يتصرَّف كيف شاء، ولا حُكْمَ لكم عليه، فقام الشَّريف حينئذٍ سريعاً، وقال: بالله يا مولانا قاضي القُضاة [قل لهم][3]، فكانت مِنَ اللَّطائف، وسمع الدَّعوى عليه.

ونحو ذلك ما حكاه أيضاً عن مَنِ ادُّعِيَ عليه بمسطور، فجحد أن يكون هذا هو المكتب عليه المسطور، فتغافل القاضي عَنِ المدَّعى عليه معظمَ النَّهار، ثم نادى: يا فلان، للاسم المكتوب في المسطور الذي أنكره المدَّعى عليه، فبادر إلى الجواب غفلةً منه، فقال للمدَّعي: قم فادَّع عليه.

قلت: وقد بلغنا عن القاضي بكَّار أنَّه دخل عليه بعضُ أُمنائه[4] وهو مخرَّقُ الثِّياب، فقال له: بعثتني لأحفظ تركة فلان، فصنع بي جارُه هذا، فأمر بإحضاره، فأحضر، فقال له: أنت صنعت هذا بأميني؟ قال: نعم، فقال للأعوان: خُذوه، فأخذوه فسقط ميتاً، فدهِشَ القاضي، فقال له أمناؤه، لا تخف، فقد مات اليوم هكذا مرَّتين! فاستوى الرَّجُلُ جالساً، وقال: كذبوا

(١) «جاء» ساقطة من (ب).
(٢) في (أ): «فلما».
(٣) ما بين حاصرتين ساقط من (أ)، وفي (ب): «قل له».
(٤) في (ب): «أبنائه».

والله ما مِتُّ إلاَّ السَّاعة، وعاد فرقد! فجعل بكَّارُ يرشُّ عليه الماءَ وَرْدٍ ويُشمُّه الكافُورَ، ويرْفُقُ به ويعِدُه، إلى أن قام، فصرفه وأقبل إلى[1] أعوانه، فقال: هدَّدتموه وجرَّرْتُموه، فلو وافق أجله؟

ومنها ما أثبته، قال: دخل أبو محمد بن حمدون النَّديم مع المعتضد الزَّلاَّقة، فأمر بلقاط الرُّطَبِ، فلما قُدِّمَ إليه، قال للقَيِّم: ما اسم هذا اللون مِنَ الرُّطب؟ قال بَرْشُوما يا أمير المؤمنين، فأمر به فضُرِبَ ستمائة سوط، وطرح في جانب البستان، فلما قُدِّم الطَّعام، كان فيما قُدِّمَ المغمومة، فقال: يا ابن حمدون، ما اسم هذا اللَّون مِنَ الطَّبيخ؟ قال: المسرورة يا أمير المؤمنين: فقال: مَنْ علَّمك هذا؟ قال: المطروح في جانب البستان.

وسمعته يحكي عَنْ بعضهم، قال إذا تزوج الشَّيخ شابَّة، فرح صبيان الخِطَّة.

وعن بعض الولاة المغفَّلين أنه أُتي بمخنَّث، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مخنَّث يُنْكَحْ كما تُنْكَحُ المرأةُ، فقال: هو يبذلُ نفسَه وأحظُرُها أنا عليه؟! اذهب يا ابن أخي فارتَدْ لاستك!.

وعن بعض المصحِّفين ممَّن قرأ كتاب بعض الولاة لنائبٍ له في جهةٍ من جهاته، وفيه أمرُه بأن يُحصي مَنْ قِبَلَه مِنَ المُخَنَّثين، قالها بالخاء، فكادوا أن يهلكوا، لكن فرَّجَ الله عنهم بالاطلاع على تصحيف اللَّفظة. قلت: ويُقال: إنَّه لم يطَّلع على تصحيفها إلاَّ بعد الفعل، ولذلك قال بعضُ الشُّعراء:

ما رأينا ضربةً مِنْ بطلٍ ... بحسام برأت ألف قَلَمْ

بل رأينا نُقْطَةً مِنْ قَلَمٍ ... في سِجِلٍّ نكَّسَتْ ألفَ عَلَمْ

وكان رحمه الله إذا سمع من يصخب في البحث يحكي حكايةً فيها أنَّ الصَّوابَ مع الأَسَدُ لا مع الأَشَدُ.

ومن لطيف حكاياته ممَّا سمعتُه منه، قال: بينما جماعة بمصر ـ وأظنُّ أنَّه حكى لنا أنَّه كان فيهم ـ إذ جاء إليهم شخص، ولعله نشأ ببادية بعيدة وهو مذعور، وقد رأى البُلقيني وهو يدِّرسُ في حلقته بالبرقوقية، فقال:

---

(١) في (ب، ط): «على».

رأيتُ اليوم عجباً، وما سلَّمني من القتل إلا الله تعالى! كنتُ بالقاهرة، فطلعتُ الجامع الذي بناه السلطان ـ يعني البرقوقية ـ فأجدُ خَلقاً قد ملؤوا إيوانها[1] الكبير، وشخصٌ في صدر المكان يصيحُ عليهم، وهم يضاربونه بأجمعهم، إلى أن تعبوا مِنَ الكلام، ثم قام كلُّ واحدٍ منهم إلى نعلٍ، فأخذه، وجئتُ قبل تمام الوقعة!.

ثم يحكي عقبها سواء حكاية أظن أنها قديمة تُشبهها، وهي أنَّ آخرَ مثلُ الأول قال: دخلتُ جامعاً، فأجِدُ شخصاً على مكانٍ مرتفع وبيده سيفٌ وهو يشتمُ مَنْ بينَ يديه ويحتدُّ عليهم، وهم سكوتٌ، وربما بكى بعضُهم مِنْ شدَّة الخوف، إلى أن تعِبَ، فنزل إليهم والسَّيف في يده، فقاموا إليه بأجمعهم ليقاتلوه، وفارقتهم قبل تمام الوقعة!.

وحكى لنا أيضاً أنَّ شخصاً سمع الخطيب يقول: حديث «لا يدخل الجنَّة قتات»، فشرع يبكي وينتحبُ، فسأله مَنْ بجانبه: لماذا؟ فقال: أنا حِرْفتي بيعُ القتِّ، وقد قال الخطيب ما سمعتَ! فقال: إنَّما معناه النَّمام.

قلت: وهذه الحكاية رأيتُها في ترجمة الحافظ أبي إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله بن الحبَّال، قال الحافظ محمد بن طاهر: سمعته يقول: كنَّا يوماً نقرأ على شيخٍ جزءاً، فقرأنا قوله ﷺ: «لا يدخُلُ الجنَّة قتَّات». وكان في الجماعة رجلٌ يبيعُ القتَّ، وهو علفُ الدَّوابِّ، فقام وبكى، وقال: أتوب إلى الله مِنْ بيع القتِّ، فقيل له: ليس هو الذي يبيع القتَّ، ولكنَّه النَّمَّام الذي ينقُلُ الحديثَ مِنْ قومٍ إلى قومٍ، فسكن بكاؤه، وطابت نفسُه.

وحكى لنا أيضاً أنَّ بعضهم جلس ليبُول، فوقف بالقرب منه شخصٌ، فقال له: منعتني نفع بولتي بوقوفك، فإنَّ الحياء منك يمنعني[2] من إخراج الريح.

قلت: وهذا مرويٌّ عن حُميد بن هلال، فروى الحسن بن قتيبة المدائني عن الحسن بن دينار ـ أحد الضعفاء ـ قال: حدثنا حميد بن هلال،

---

(١) في (ط): «أبوابها»، تحريف.

(٢) في (ب، ط): «منعني».

قال: ذهب رجلٌ يبول، فتبعه رجلٌ، فقال له: حرمتني بركة بولي. قال[1]: وما بركةُ البَوْلِ؟ قال: الفَسْوَةُ والضَّرطَةُ!.

وقد روى سعيد بن منصور في «سننه» من طريق سوادَةَ بن هانىء، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا خرج رجلان جميعاً لإهراقة الماء، فليتنحَّ أحدُهما عَنْ صاحبه، فإنَّ الرَّجُلَ يتنفَّسُ.

وحكى لنا أيضاً أنَّ بعض أهل البوادي رُؤي في الصَّيف وهو يغتسِلُ، فصار كلَّما غطَسَ ورفع رأسه، حلَّ عُقْدَةً مِنْ خيطٍ كان معه، وأنه كرَّر ذلك مراراً، فسُئِلَ عَنْ سبب ذلك، فقال: كنتُ في الشِّتاء كلَّما وجبَ عليَّ غُسلٌ، عقدتُ عُقْدَةً، فأنا في هذا الوقت أُوفي بجميع ما عليَّ مِنْ ذلك!

وحكى لنا غيرَ مرَّةٍ عن ناصر الدين بن صُغَيْر الطبيب[2] أنَّ الصَّفدي قال له: لو جلست على دُكَّان عطَّار، لارتفقت بذلك. فقال له: يا مولانا، هؤلاء النِّساء، إن لكم يكنِ الطَّبيبُ يهودياً شيخاً مائل الرَّقبة، سائل اللُّعاب، لم يكن لهُنَّ عليه إقبالٌ.

ومما سمعته يحكيه ـ مما في ظني أنه عزاه لبعض التَّواريخ، وأهابُ تسميته قبل الوقوف عليها ـ أنَّ ثلاثةً مِنَ الحُدبان كانوا إخوةً في الشكل والطُّول[3] والهيئة واللُّبس، أحبَّ بعضُ النَّاس مبيتهم عنده بداره للتَّفرُّج على هيئتهم وسماع ألفاظهم، ففعل ذلك، وعند تمام الأرب منهم أدخلهم في شونةٍ[4] عنده ممتلئة تبناً ليبيتوا بها، فانهار عليهم التِّبْنُ، فأصبحوا لا حياة بهم، فخيف مِنْ غائلة ذلك، فأعمَلَتْ جاريةٌ مِنْ جوار المنزل الحيلة في إخراجهم بأن أرغَبَتْ بعض السَّقَّائين، وقالت له: عندنا شخصٌ أحدبُ توفي

---

(١) في (أ): «قلت»، والمثبت من (ب)، حيث كتبت الحكاية بهامشها بخط المصنف.

(٢) هو ناصر الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير، ولد سنة ٦٩١هـ، وتوفي سنة ٧٤٩هـ، مترجم في الدرر الكامنة ٤/ ١٩٠ ـ ١٩١ نقلاً عن أعيان العصر للصفدي، وفيهما الحكاية. وترجمه الصفدي أيضاً في الوافي بالوفيات ١/ ٢٥٨ باختصار.

(٣) «والطول» ساقطة من (ب).

(٤) قال في القاموس: الشَّوْنَة: مخزن الغلَّة.

بسقوط التِّبْنِ عليه، ولا نحبُّ العلمَ به خوفاً مِنْ غائلته. فهل لك أن تُعمل الفكر في إلقائه في البحر ولك دينارٌ؟ فقال: نعم، فأخذه ولفَّه في عباءته، وألقاه على ظهر الجمل إلى أن وصل به إلى البحر في السَّلامة، فألقاه فيه ورجع، فبادرت قبل مجيئه لإخراج الثَّاني، وقالت له عندما رام أخذَ جُعْلِه: هذا هو قد سَبَقَكَ! فما شكٌّ في صِدْقها، لكونه ـ كما قدَّمنا ـ شبيهاً له، وأخذه ففعل به ما فعل بالثَّاني. وهكذا فعلت بالثالث، وقاسى غلبة في ذلك!.

هذا معنى ما سمعتُه، وهي هزليَّةٌ، وتمامها، وهو غاية في الظَّرْفِ، لكن الغالبُ الظَّنُّ أنَّها مُفْتَعَلَةٌ: أنَّ السَّقاء عند فراغه مِنَ الثَّالث وطلوعه من البحر، وجد بعضَ الحُذْبَانِ وهو ماشٍ بين يديه ومعه إبريقٌ كأنه كان يتوضَّأ، فأدركه بعزم قويٍّ[1] واقتلعه مِنَ الأرض قائلاً له: إلى متى تتبعُني في هذا اليوم، قد مسكتُك، ولم يزل به حتَّى ألقاه في البحر وهو يصيح، فلا قوة إلا بالله، وأستغفر الله تعالى مِنْ حكاية مثل هذا.

وكذا سمعته غير مرَّة يحكي أنَّ بعضهم حكى أنَّ بعض البُلدان يتشجَّر النَّعنع حتَّى يُعْمَل مِنْ خشبه السَّلالم، فقال له بعضُهم: أغربُ من هذا زوجُ حمام راعِيِّ، يبيضُ في كلِّ نيفٍ وعشرين يوماً بيضتين، فأنتزعهما مِنْ تحته وأضع مكانهما صنجة مائة وصنجة خمسين، فإذا انتهت مدَّةُ الحضان، تفقَّسَت الصنجتان عن طَشْتٍ وإبريقٍ أو سطلٍ وكرنيب. قال: وإنَّما أراد الثاني المبالغة، مشيراً إلى كذِبِ الأول.

قلت: وهاتان الحكايتان رأيتُهما في ترجمة صاحب «الأغاني» أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم الأصبهاني.

وقريبُ الشَّبَهِ مِنْ هذا: أنَّ بعض الجماعة مِمَّن يُعْرَفُ بالمجازفة مِن الحلبيين [حكى أنَّ عندهم بحلب][2] من اجتمع مِنْ أولاده الذُّكور تسعة

---

(١) «قوي» ساقطة من (أ).

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من (ط).

وثلاثون وتكملة الأربعين[1] أنشى، فقال بعضُ الحاضرين: وأغربُ مِنْ هذا... وشرع يحكي شيئاً، وكان ذلك بين يدي صاحب التَّرجمة، فضحك وقام إلى الصلاة، قصداً لقطع ذلك.

ومما أثبته قال: رفع رجلٌ قُصَّةً إلى القاضي الفاضل بخطٍّ ضعيف، رافعها اسمه شعيب، فكتب عليها ﴿يَشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ ويا خطه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١]. فانظر لنا مَنْ يقرأ ما تكتب، أو يكتُبُ ما نقرأ، والسلام.

وممَّا سمعته أنَّ خطيباً [ببعض القرى][2] استضافَ شخصاً، فأقام عنده أياماً، ثم قال له الخطيبُ: لي مُدَّةٌ أصلِّي بأهل هذه القرية، وقد أشكل عليَّ مِنَ القرآن مواضع، فأحبُّ أن أسألك عنها، فقال: سل، فقال: في الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ﴾. فما الكلمة التي بعدها. هل هي سبعين أو تسعين؟ أشكل عليَّ أمرُها، فأنا أقولُها (تسعين) عملاً بالاحتياط!.

[قلت[3]: وهذه الحكاية أسندها ابن الجوزي، فقال: حدثنا أبو البركات محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الرُّومي، أنَّ رجلاً مِنَ النَّاس مضى إلى قرية، فلقيه خطيبُها فضافه، فأقام عنده أياماً، فقال له الخطيب: لي مدَّة أُصلِّي بهؤلاء، وقد أشكل عليَّ في القرآن مواضع. قال: سل عنها. قال: في «الحمد» ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ﴾، أي شيء: «تسعين» أو «سبعين»، أشكلت عليَّ، فأنا أقولُها «تسعين» عملاً بالاحتياط! حكاها ابنُ النَّجار في ترجمة ابن الرومي].

وأنشد رحمه الله مرَّةً يخاطبُ بعضَ الطَّلبة عن شيخه العلاء ابن أبي المجد قراءةً عن العلاء بن المظفَّر الوداعي، وكان خاتمة أصحابه بالإجازة قوله:

متى أراه خلفه ... عاتٍ من الأقوام عادي

---

(١) في (أ): «الأربعون» خطأ.

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) ما بين حاصرتين لم يرد في (ط)، وورد في هامش (ب، ح) بخط المصنف.

ونـــــداؤه: هـــــذا جـــــزاء فـأقـول قـد صـدق الـمـنـادي

وبقي يخاطبه بقوله: «هذا جزاء»، والطالب لا يفهم، بل صار يعيدُها تبعاً لشيخنا دون فهم المقصود، فإنه لو فهمه ما ذكره.

وقد قال محمد بن إسحاق صاحبُ «المغازي» فيما رويناه في «النوادر والتُّحَف» لأبي الشيخ ابن حيّان الحافظ: يُعجبني مِنَ القُراء كلُّ ضحَّاك بسَّام، طلْقُ الوَجْهِ، ليس الذي تلقاه ببشاشةٍ ويلقاك بوجه عبُوسٍ، يمتَنُّ عليك بعلمه، لا أكثر الله في القُرّاء مثل ذلك.

وممَّا رأيته مما هو دالٌّ على لُطف ذاته وجميل عِشْرَتِهِ: أنّني بينما أنا أقرأ عليه بعضَ عواليه في بعض اللَّيالي على العادة، إذ حضر بعضُ أصحابه وهو العلاَّمة نور الدين بن سالم، وكنتُ أنا وإياه وسط النَّهار بين يدي شيخنا، سمع معي[1] شيئاً ممَّا[2] قرأته، فعندما رآه شيخُنا مقبلاً أشار إليَّ أن إذا أمرتك بالإعادة، لا تفعل، ووصل فجلس، فقال له شيخ الإسلام: ما هذا الحال، تغيب عن السَّماع في هذا المرويِّ العالي؟ فالتفت إليَّ، وقال: لِمَ لَمْ تُعلمني بذلك حيث كنت أنا وإياك السَّاعة؟ فلم أُجِبْه وصِرْتُ أقرأ وشيخُنا يبالغُ في وصفه بالتَّقصير عن تفويت مثل ذلك، وهو ـ أعني ابن سالم ـ يحثُّ عليَّ في الإعادة، ولا أجيبه بكلمة إلى أن تعبَ، فقال لشيخنا: قل له يفعل، ففعل لكنِّي امتثلتُ إشارته السَّابقة، وصِرْتُ في خجل. كلُّ هذا بأدنى إشارة، مع سكون وإطراقٍ وعدم مزيد حركة، ممَّا لا أستطيعُ التَّعبير عنه.

وكان رحمه الله يخصُّ ابن سالم مِنْ ذلك بما لم أره يُكثر فعله مع غيره. رأيته عند سفر ابن سالم إلى صفد ـ وما التقيا بعدها في غالب الظَّنِّ ـ وشيخُنا يقولُ له: يا شيخ فلان، شيخُك ابنُ الكُوَيْك يروي «الشفا» غايةً في العُلُوِّ، فما كان بأسْرَعَ مِنْ إخراجه الدَّواة والقلم، وشرع يستملي منه ذلك، فأخذ يتلاهى عنه، تارةً بالبحث والتَّقرير، وتارة بالكتابة على

(١) «معي» ساقطة من (أ).

(٢) في (أ): «ما».

الفتاوى، وتارة بغير ذلك، وهو يحترقُ ويلِحُّ في الطَّلب، فما احتملتُ أنا ذلك، وكنت بجانبه سواء، فأمليتُه مِنْ حفظي السَّنَدَ المشارَ إليه سرّاً، وما خطر لي أن يُعلمه بذلك، فبمجرّد تمامه قال: قُضيَ الأمر وبطَلت الحاجة! فقال له: كيف؟ فأشار إليَّ، فأظهر سُروراً بذلك.

وبينهما مِنَ المُلاطفات غيرُ ذلك. ومع هذا كلِّه، فقد قال له[1] مرَّةً في حالة مرافقته له في السَّفر إلى آمد، عندما تكرَّر منه كَثْرَةُ صبِّ الماءِ والتَّمادي في الوضوء لوسواسٍ كان عنده، وكذا في تكرار النِّيَّة عند الإحرام بالصَّلاة حتَّى يكاد يخرُجُ وقت الصَّلاة، واحتدَّ عليه: متى عدتُ أراك تفعلُ هكذا، ضربتُ عُنُقَك! وإنَّما قاله رحمه الله مبالغةً، فأجابه بقوله: عجيبٌ، كيف يصير ابنُ سالمٍ عاطباً! فتبسم شيخنا.

وكان لابن سالم مُمَاجناتٌ كثيرة، مع فهم جيِّدٍ وعلم، وقد قرأ على شيخنا في «النَّسائي الكبير»، مع كونه رفيقاً له في سماعه فيه على ابن الكُويك، لكن لجلالته عنده واحتياجه[2] لضَبْطِ المتون السَّند، والتفقُّه في الحديث، ولغير ذلك، رحمه الله وإيانا.

وكذا كان كثير المماجَنَةِ مع الشِّهاب الرِّيشي، أحدِ جماعته، سمعتُ الرِّيشي يحكي مرَّةً عن شيءٍ أدركه ممَّا اتَّفق قديماً، فقال شيخنا رحمه الله تعالى: «حاسبُوهم بالتَّاريخ»، ثم أسرَّ قوله: «تجدوهم كذَّابين».

وكثيراً ما سمعتُه يقول: لا يزال العاميُّ يدَّعي الصِّبا، ويغضبُ ممَّن يصفُه بغيره حتَّى يزاحم الخمسين، فإذا بلغ ذلك أخذ[3] يتمشيخ ويبالغ ويقول لمن دُونَه في السِّنِّ ما الذي رأيت؟ أنا رأيتُ السُّلطان الفلاني، واتَّفق كذا، وأكلت كَيْتَ وكَيْت بكذا، وما أشبه ذلك، وربما يدَّعي بعضُهم مجاوزة المائة، وإذا حقق الأمرَ فيه، لا يزيد على السَّبعين، ولهذا كان يمنع

---

(١) في (أ): «لي»، خطأ.

(٢) في (ط): «واحتياطه».

(٣) «أخذ» ساقطة من (أ).

من الأخذِ عمَّن يدَّعي السِّنَّ، أو يدَّعي له مِنَ العوام ونحوهم ممَّن لو صحَّت الدَّعوى منه[1]، لدخل في عُموم إجازة القُدماء، وهو متعيِّنٌ.

وذكرت هذه الحكاية استطراداً لقوله: «حاسبوهم بالتاريخ»[2].

وقال للشِّهاب الرِّيشي مرَّةً وهو جالسٌ في محراب المنكوتمرية، والشهاب بحذاء المحراب أيضاً يا شهابَ الدِّين، هل تعرفُ في القرآن «الرَّحيم الرحمٰن»؟ فبادر إلى إنكار ذلك، مع كونه ماهراً في حفظ القرآن، بل ومِنَ القُرَّاء واستمر يبالغُ في الإنكار وشيخنا ساكتٌ وهو[3] يكثر التَّبسُّمَ، وأطال في ذلك، فقال له: يا شهاب، ارفع رأسَكَ وانظر تُجاهَكَ، فرفع رأسه، فرأىٰ بصدر الإيوان المقابل له مكتوباً: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾، فكانت مِنَ الفوائد الجليلة، واستحسنها الجماعة.

وعندي مِنْ خفَّةِ خاطره، وحلاوة نادرته، ولطافة طبعه، الذي إذا وقعت لها الكلمةُ الزَّائدةُ المستحسنة لا يسكت عنها، أمراً عجباً، وتجد كلَّ واحدٍ مِنْ جماعته يحفظُ مِنْ ذلك ما لا يحفظُه الآخرُ، فرحمه الله وإيانا. آمين.

ومِنْ ذلك: أنَّ سائلاً رفع له قُصَّةً يلتمَسُ شيئاً مِنْ مبرَّاته، فكتب له عليها بقدرٍ، ثم جاءه[4] بعد قليل بقُصَّةٍ أيضاً، ظانّاً أنَّه يَخْفَى عليه قُرْبُ مجيئه، فكتب له بهامشها:

إذا ما جَنَيْتَ جنى نَخْلَةٍ ... فلا تَقْرَبَنْهَا إلى قابِلِ

ونحو هذا: أنه عزل أحدَ نوَّابه شمس الدين بن خيرة، فتوسَّل عنده

---

(١) «منه» ساقطة من (ط).

(٢) «بالتاريخ» ساقطة من (ب).

(٣) «وهو» ساقطة من (ب، ط).

(٤) في (أ): «جاؤوا».

في عَوْده بحارة الأمير يشبك فأجابه، لكن عيَّن له الجلوس بمجلس الهلالية بالدَّجاجين، ليكون مبعداً عن أميره المشار إليه، فلم يقنع بذلك، وتوسَّل ثانياً بالأمير المذكور، فكتب له:

إذا أنـت لـم تـقـنَـعْ ورُمْـتَ زيـادَةً ... ندِمْتَ ولم تأمَنْ زوالَ الذي حَصَلْ

وقريب من ذلك: أنَّ أحد النُّوّاب، الشِّهاب أحمد بن محمد بن الدقاق المصري، حضر إليه حين عودِهِ للقضاء في بعض المرَّات، يلتمسُ استنابتَه على العادة، فوجد جَمْعَاً مِنَ النُّواب قد سبقوه إليه، فقضى أربهم، ودخل إلى منزله، فسيَّر إليه[1] قصَّته مع بعض الخُدَّام، فعاد بها بدون الغَرَضِ، فجهَّزها له ثانياً بعد أن كتب فيها ما معناه: إنَّه إن لم تقض حاجته شكا إلى الفُقراء، فأجابه بما نصُّه: أمَّا ابن الدقَّاق، ففاتته الدقة، فإنه غاب، ومَنْ غاب خاب، وأكل نصيبه الأصحاب، وما مَثَلي ومثَلُه إلا كمثل رجلٍ جاء إلى الطَّحان بزَنبيله، فقال: قدِّمني على غيري، وإلاَّ أدعو عليك يَنكَسِرْ حَجَرُكَ وتموتُ دوابُّك، فقال: إن كنتَ مستجابَ الدَّعوة، فادعو لقمحك يبقى دقيقاً.

ومنه فيما بلغني: أنَّ شخصاً به حَوَلٌ مِمَّن كان يعارض[2] المجاورين بالأزهر، فصاروا يكتبون له بحائط محلِّ جلوسه: لا حول ولا قوة إلا بالله، فاستفتى صاحب التَّرجمة عن ذلك، ورام أن يجيبه بتعزير فاعِلِه، فكتب له ما نصُّه: لا حول ولا قوَّة إلا بالله كنزٌ مِنْ كنوزُ الجنَّة.

ومنه: أن بعضَ الطَّلبة قرأ: «وله حُصَاص»[3]، أعجم أوَّله، فردَّ عليه بقوله: «حاء»، فكانت مِنَ اللَّطائف.

وكان مرَّةً يفرِّقُ على الفقراء دراهمَ، لكلِّ شخصٍ درهماً، فجاءتهُ امرأةٌ مِنَ الفُقراء مِنْ شُبَّاك المدرسة وهو جالس بها، فقالت له وهي رافعة

---

(١) «له» ساقطة من (ب، ط).

(٢) في (أ): «يعارضه».

(٣) يشير إلى قوله ﷺ: «إذا أذنَّ المؤذن أدبر الشيطان وله حصاص».
والحصاص: الضُراط. انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ٩٠.

سبَّابتها: يا سيِّدي وُحَيِّد، فقال مِنْ غيْر أن يُسْمِعَها: توجَّهي لبعلِك.

واجْتَازت امرأةٌ أخرى ولها رائحةٌ عطِرَةٌ، فقال له شخصٌ بجانبه كالمُنكِرِ عليها: انظرْ إلى هذه الرَّائحة، فقال له: رايحة جَايَة.

وكنَّا معه في الدَّرس بالمقعد، فقام الهواءُ، بحيثُ طارت أوراقُ بعضِ الحاضرين مِنْ بين يديه، وكان في المجلس الشَّيخ حسين الشيرازي العجمي ـ عرف بالفتحي[1] ـ فقال مخاطباً لصاحب الأوراق: يا شيخ ثقِّل، فقال له صاحبُ التَّرجمة: بعد العصر.

وحضر إجلاساً لناصر الدين بن السَّفَّاح، فقال لعمِّه ـ وهو كاتب السِّرِّ إذ ذاك ـ بعد فراغه مِنَ المجلس: والله يَسْرُد مليح.

وجلس مع رفقته مِنْ قُضاة المذاهب[2] وغيرهم وهم راجعون مِنَ السَّفر إلى آمد، فذكر كلُّ واحدٍ منهم ما يحتاجُ لشرائه مِنَ القماش ونحوه هديَّةً لأهله وغيرهم، فقال واحدٌ منهم: أمَّا أنا، فأشتري لهم حِمْلَ جوز ولوز وزبيب وتين[3]، فقال له صاحبُ التَّرجمة بديهةً: هذه هدية عزَّة، فاستحسنها الحاضرون، لأنَّ تصحيفها «عُرَّة».

ووقف إليه شخصٌ مِنَ الشُّطَّار، فقال له بلفظه المألوف: الله يسعدك. فالتفت إليه مباسطاً له، قائلاً: أيش أنت، فقال خثعم، فقال له: إنهم وسَّطوه، فقال الشَّاطر: إنَّه نَبَتَ.

وسمعته يحكي قضية[4] العِرْسِ وتغطيته، ومجيء أمِّه ودورانها حول ابنها ترجو إطلاقه، وأنَّه طال ذلك عليها، فبادرت وأحضرت في فمها ديناراً، ثم آخر، ثمَّ آخر حتَّى استوفت عدداً، وأنَّها جاءت بالخِرْقَةِ بعد ذلك، إشارةً إلى فراغ ما عندها، فأطلق بعدَ ذلك. لكن ما علمتُ هل

---

(١) في (ط): «الشهير بالفتحي».

(٢) في (أ): «المذهب».

(٣) «وتين» ساقطة من (أ).

(٤) في (أ): «قصة».

حكاها أنها اتَّفَقَتْ له أو للبدر البشْتَكي أو لمن تقدَّم.

ثم رأيتُها في ترجمة محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن منصور بن الخاضِبَة من «ذيل تاريخ بغداد»، قال: كنتُ ليلةً أنسخُ وأنا في ضيقٍ، وبعد مُضيِّ قطعةٍ مِنَ الليل، خرجت فأرةٌ ثمَّ أخرى، فكانا يمرحان ويلعبان، ودنت إحداهما منِّي، فألقيتُ عليها طاسةً، فجاءت صاحبتُها، فجعلت تشمُّ الطَّاسة وتضربُ نفسَها عليها إلى أن أعيت، فذهبت [فدخلت سِرْبَها][1]، ثم رجعت بعد ساعة وفي فمها دينارٌ، فألقته ومكثت ساعةً تنظرُ إليَّ، وأنا مُتشاغِلٌ عنها بالنَّسخ، ثم ذهبت إلى مكانها أيضاً وجاءت بدينارٍ آخر، إلى أن أحضرت خمسة أو أربعةً، وفي الآخر أطالت المُكْثَ والنَّظَرَ إليَّ وأنا متشاغِلُ عنها، ثم ذهبت إلى سِرْبها أيضاً، ثمَّ رجعت وفي فمها جُلَيْدَةٌ، فوضعتها فوقَ الدَّنانير، ففهِمْتُ أنَّه لم يَبْقَ عندها شيءٌ، فرفَعْتُ الطَّاسة، فقفزا ودخلا السِّرْبَ، فقُمْتُ وأخذتُ الدَّنانيرْ فأنفقْتُها. وكانت زِنَة كلِّ واحدٍ دينار وربع.

ويُروى أنَّ المقدادَ ذهب لحاجته ببقيع الخَبْخَبَة، فإذا جُرذٌ يُخْرِجُ مِنْ جُحْرٍ ديناراً، ثمَّ لم يزل يُخْرِجُ ديناراً ديناراً حتى أخرج سبعة عشر، ثمَّ أخرج خِرْقةً حمراء وفيها دينار آخر. فقدِمْتُ بها إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «هل خرَّبت الجحر»؟ قال: لا، فقال: «بارَكَ الله لك فيها»[2].

وكذا حكى لنا قضية البراغيث وجَعْلِها في وعاء مختوم عليه في انقلابهم تُراباً، ثم براغيث، وما تحقَّقْت الحكاية على وجهها أيضاً.

وحكى لي العلاَّمةُ الشِّهاب الحجازي، قال: كنتُ أقرأُ بشبّاك الخانقاه البيبرسية في وظيفتي مع الجماعة على العادة، فصادَفَ اجتياز صاحبِ التَّرجمة وابن يعقُوب في خدمته عند قراءتنا: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦] فحرَّك رأسَه، ثم إنَّني لقيتُه بعد ذلك، فسألني: هل كان ذلك قصداً أو اتِّفاقاً؟ قال: فحلفتُ له بالطَّلاق أنَّه اتِّفاقاً.

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (أ).

(٢) انظر: سنن أبي داود رقم (٣٠٨٧)، وسنن ابن ماجه رقم (٢٥٠٨).

وقد أشرتُ إلى هذه الاتِّفاقية في أواخر الباب الرابع[1].

وحكى لنا، قال: كان شيخُنا القاضي صدرُ الدِّين المناوي كثيراً ما يجمعُ الطَّلبة ونحوهم على الطَّعام الفاخر. فاتَّفق أنَّه أُحضِرَتْ له جارية ليختبِرَها فيما وُصِفَتْ عنده به من إتقان الطَّبخ حتى يشتريَها، فأمرها بطبخ ألوانٍ عُيِّنَتْ لها بعد أن أحضرَ لها جميعَ احتياجاتها على الهيئة المرضيَّة، بحيث لا يختلُّ بشيءٍ. ولمَّا انتهت مِنْ تهيئتها، ورأت الجاريةُ التي كانت قبلَها مِنْ ذلك ما حسدتها مِنْ أجله، أخذت صبراً، ودارت على القدور فأشعلتها عن آخرها، والطَّبَّاخَةُ غافلةٌ عَنْ صنيعها، ووصل عِلْمُ ذلك للقاضي، فتغيَّر لطول مُكْثِ الجماعة بين يديه لانتظار الاستواء، فدبَّر نقيبُه الأمرَ بمد السِّماط، وحين ينتهي وضع تلك الأطعمة يخير الجماعة بين التَّقدُّم للأكل أو النظر لأمر غريب، وهو إحضارُ شخصٍ واحدٍ يأكُلُ الجميع، ففعل ذلك، فاختاروا التفرُّج، وقدَّمُوه على الأكل، ففي الحال أُحْضِرَ شخصٌ يسمَّى سرحان، فجلس في ذيل السِّماطِ، وشرع في الأكل حتَّى أتى على آخره، وما تمَّ ذلك حتَّى أمر القاضي بإحضار شواءٍ مِنَ السُّوق يكفي بجماعة فأكلوه، وتعجَّب كلٌّ منهم لصنيع سرحان.

قلت: وقد ترجم شيخُنا سرحان هذا في سنة اثنتين وتسعين من «إنبائه»[2]، وقال: إنَّه كان مالكياً عارفاً بمذهبه، أكولاً مهشوراً بذلك. انتهى.

وهو ممَّن أخذ عنه البدر بن الأمانة الفرائض، وأظنُّه كان إمام المالكية بالصَّالحية، وأحدَ سُكَّانها.

[رغبته في العلم:]

وأما شدَّة رغبته في العلم ومحبَّتُه في المذاكرة به والمباحثةُ فيه، فوراء العقل، مع كثرة الإنصاف ولو على نفسه، وعدم استنكاف سماع الفائدة ولو مِنْ صغار آحاد طلبته، بل يستحسِنُها ويأمرُ الحاضرين بسماعها، حتَّى رأيتُه

(١) ص ٦٥١.

(٢) إنباء الغمر ٣/ ٣٩.

مرَّةً يقول، وقد[1] تكلَّم شابٌّ بشيءٍ وهو خارجُ الحلقة: اسمعُوا ما يقولُ الشَّابُّ، فإنَّه يقول جيداً. وطال ما يقول: مقالة هذا هي الصواب، مع كونه كان قرَّرَ خلافها رجوعاً منه إلى الحق، وإنصافاً وعدم محاباة.

وحكى لي شيخنا العلامة مفخرُ العصر تقي الدين الشُّمُنِّي، وهو مِنْ تلامذته، قال: كنتُ أحضُرُ عنده بعد أن اشتغلْتُ وفهمت العِلْمَ فيكرِمُني، وأفهم أنَّ سببَ ذلك كونُ والدي مِنْ جماعته، لا لكوني طالبَ علم، لأنه لم يكن اطَّلع على ذلك، إلى أن حضرتُ بين يديه مرَّةً على العَادة في المحمودية، وقارىءٌ يقرأ عليه حديث «فليَخْلُقوا ذرَّةً وليخْلُقُوا حبَّةً أو شعيرةً»، فوقع السُّؤال عَنِ الحكمة في التَّرقِّي، كذلك قال: فأجبتُ بأن صُنْعَ[2] الأشياء الدَّقيقة فيه صعوبةٌ، والأمر لمعنى التَّعجيز، فناسَبَ التَّرقِّي مِنَ الأعلى للأدنى. قال: فأعجبه ذلك، وأقبل عليَّ، وصار يلحظُني ويُكرمني ويُصغي لمقالي. رحمه الله.

[أدبه مع العلماء:]

وأمَّا كثرة أدبه مع العلماء المتقدِّمين منهُم والمتأخِّرين، فمشهورٌ بحيث كان إذا تعقَّب النَّوويَّ رحمه الله بشيءٍ يقول: وعجبتُ للشَّيخ مع سَعَةِ علمه كيف قال كذا، أو ما أشبه ذلك مِنَ العبارات.

وسمعت أنَّه توجَّه مرَّةً هو وقاضي الحنفيَّة الزَّين التَّفهني لإسماع تصنيفه في «مناقب اللَّيث» عند ضريحه، فحصل الابتداءُ بزيارة الإمام الشَّافعي رضي الله عنه، ثم التَّوجُّه بعد ذلك ألى ضريح اللَّيث رضي الله عنه، فقرأ شيخُنا ابنُ خضر «المناقب»، ثم رجعوا، فقال صاحبُ التَّرجمة: أحبُّ أن يكونَ آخر عهدي بالإمام كما ابتدأتُ بزيارته، ففارقه التَّفهني مِنْ تلك الجهة، واستمر عند الباب الآخر ينتظر شيخَنا حتَّى فرغ مِنَ الزِّيارة، وأنكر بعضُهم سرًّا على التَّفَهْني صنيعه، وكانت مدته بعد قريبه رحمة الله

---

(١) في (أ): «ولو»، خطأ.

(٢) «صنع» ساقطة من (أ).

عليهم. ولكونه كان بهذه المثابة، عُتِبَ عليه حين استقرَّ في تدريس الشَّافعي، إذ بدأ بالدُّخول لمحل الدَّرس مع اعتذاره عن عدم الابتداء بالزِّيارة، بخشية الإطالة على الجماعة الذين قصدوا الموافاة، والزيارةُ تحصُلُ بعدَ الفراغ من القصد الذي جِيءَ بسببه، والأعمالُ بالنِّيَّات.

[تهجده:]

وأما تهجُّده، فما كان يتركُه، بل أخبرني غيرُ واحد ممن رافقه في السَّفر أنَّه كان يقومُ اللَّيل في السَّفر أيضاً، وكذا لم يتركه في ضعف موته قائماً، بل ربَّما توكأ على ولده إلى أن أعيى، وذلك قبل وفاته بأربعة أيام.

وأما أنا، فبتُّ معه عقِبَ وفاة ابنة أخت أم أولاده بتربتهم بجامع المارداني، فصلَّينا معه العشاء بالجامع المذكور، ورجعنا فنام والتفّ في لحاف حتَّى مضى مِنَ اللَّيل النِّصْفُ فيما أظنُّ، ثم استيقظ والجماعة كلُّهم نائمون، واتَّفق أنَّني كنت مستيقظاً، فهممتُ لأقوم معه، فمنعني وهو في سكون زائد ورشاقة، خوفاً مِنَ استيقاظ أحدٍ، فدخل الخلاء، ثم توضأ وضوءاً خفيفاً جداً في تمام على جاري عادته، واستقبل المحراب، فصلَّى إلى أن غلبني النَّومُ، وكان يطِّيل القيام وكأنَّه كان يقرأ راتباً مِنَ القرآن في تهجُّده، ثم استيقظتُ فأجده نائماً، وأظنُّه استمرَّ كذلك إلى أن قام لصلاة الصبح، وقمنا معه، فصلينا بالجامع المارداني أيضاً، ورجع كلٌّ إلى محلِّه[1].

[صومه:]

وأما صومه، فكان رحمه الله يسرُدُ الصَّوم أوَّلاً، ثم صار يصومُ يوماً ويفطِرُ يوماً، مع الحِرْصِ على صوم تاسوعاء وعاشوراء، وعرَفَة وستَّة شوال، ويأكُلُ وقت الفِطْرِ يسيراً، ثُمَّ يتسحَّر بشيءٍ يسير كذلك قريب الفجر جداً.

وأظنُّه كما كان يقصِدُ في الصَّوم صومَ داود عليه السَّلام، كذلك كان

---

(١) في هامش (ح) بخط المصنف: ثم بلغ الشيخ عبدالعزيز بن فهد نفع الله به، قراءة علي في ٢٤ والجماعة سماعاً.

يتحرَّى طريقته في الصَّلاة، ينام نصف الليل الأوَّل، ويقوم ثُلُثَه، وينام سُدُسَه، لأنَّه ورد في الصَّحيح عَنْ نبيِّنا عليه أفضلُ الصَّلاة والسلام أنَّ ذلك أحبُّ الصلاة إلى الله تعالى، كما صحَّ أنَّ صومه أحبُّ الصِّيام إلى الله.

[تلاوته للقرآن:]

وأما تلاوته، فكان يُكثر منه ـ لا سيما في حال ركوبُه، وعقِبَ صلاة الصُّبح ـ بتدبُّرٍ وتأنٍّ وسكون، إذا مرَّ بآيةِ رحمة سأل، أو عذاب تعوَّذ.

ولقد صلَّيتُ معه المغرب، فقرأ في الركعتين بغالب سُورة الأعراف، وكان شَرَعَ فيها بناءً على قراءة السُّورة بتمامها، فإنَّه استأذن الجماعة، وكنَّا أربعةً أو ثلاثة، فقرأ ما يقتضي التَّخفيف.

وبتشاغله بالتلاوة في حال الرُّكوب كان يمتنع مِنَ السَّلام على كثير مِمَّن يراه، والأعمال بالنِّيَّات.

[عيادته المرضى:]

وأما عيادتُه للمرضى وشهودُ الجنائز، فكان حريصاً على ذلك، لا سيَّما مَن يلوذُ به. ومَنْ لم يتيسَّر له عيادتُه منهم، تفقَّده بشيءٍ مِنَ الدُّنيا.

ولقد توعَّكتُ مرَّةً، فأرسل نقيبَه القاضي شهاب الدين بن يعقوب إليَّ ومعه مبرَّةٌ، ثم صار كلَّ يوم يسأل من الوالد عَقِبَ صلاة الصبح ـ إذ كان ملازماً للصلاة معه ـ عنِّي، حتى إنَّ الوالد اشتدَّ خوفُه عليَّ، وازدادت محبَّته فيَّ، لما رأى من كثرة سُؤال هذا العظيم المقدار عَنْ أقلِّ خُدَّامه.

وهكذا كان دأبُه رحمه الله مع أتباعه، طال ما عاد عبد الغني العطَّار الذي كان جابياً عنده، وغير ذلك ممَّا هو معدود عند العارف بالسُّنَّة العامل بها، في مناقبه ومفاخره.

نعم، لم يكن شديدَ الاستقصاء في تتبُّع ذلك؛ لعدم اتِّساع أوقاته له، ولقد أشار هو إلى ذلك، حيث قيل له عن القاضي بدر الدين البغدادي ومبالغته في التَّردُّد للأعيان وشبههم بسبب ذلك ونحوه، فقال: كلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له، أو كما قال.

[محبته للصالحين:]

وأما اعتقاده في الصالحين، ومن يثبُتُ عنده انجذابه منهم، فمعلوم. قد زارَ جماعةً منهم، بل وبرَّهم، وعادت بركتُهم عليه، ورأينا يحضُرُ عندَه في مجلس الإملاء ممَّن يُنْسَبُ إلى الخير شخص يقال له الشَّيخ عوض، يأكل مِنْ صنعة الحياكة، فكان يشتري منه غالباً شيئاً من صنعته، ويلبس منه قصداً لحصول البركة، وبراً منه له، وكان المذكور ظريفاً، طال ما كان يقول له: يا ابني يا أحمد افعل كذا وما أشبه ذلك، ومرَّة غاب المستملي الشَّيخ رضوان، فقال لشيخنا: اتَّخذ لك رضوانين ثلاثة. كل ذلك وشيخُنا يُجِلُّه ويتوسَّم البركة فيه، وناداه مرَّةً: يا شيخ عوض، فأبشع في حقِّ مَنْ سمَّاه بذلك، فقال له صاحبُ التَّرجمة: إنما سمَّاك أبوك وأمُّك.

إلى غير ذلك مما يُستدل بدونه على حُسْنِ الاعتقاد والميل لمن[1] لم يخرج عن[2] الكتاب والسنة، بل أنشد المذكور شعراً بحضرته، فقال لصاحبنا النجم بن فهد: اكتُب هذا عن الشَّيخ، فما اتَّفق أنَّه كان معه دواة.

وكان يقول عن الشَّيخ محمد بن صالح المجذوب كان: إنه فقيرٌ ظريف، وبرَّه غير مرَّة.

وزار في سنة ست وثلاثين العلامة العارف بالله تعالى الشِّهاب ابن رسلان صاحب التصانيف والأحوال المرضية بالرملة.

وحضر إليه الشَّيخ مدين رحمهما الله بسبب استرضائه على الولوي البلقيني، فرأيتُ شيخنا أكثرَ مِنَ التَّأدُّب معه.

وكذا سيأتي في أول الباب التاسع[3] ذكرُ شيءٍ مِنْ صنيعه مع الكمال المجذوب.

وجاءه الشيخ أبو العباس أحمد ابن الشيخ محمد الغمري نزيل المحلَّة

---

(١) «لمن» ساقطة من (أ، ح).

(٢) في (أ): «من».

(٣) ص ١١٨٥.

وهو صغيرٌ، فقام إليه، واحتضنه قائلاً له: المؤمن محفوظٌ في ولده وولدِ ولدِه، وأجلسَه بجانبه.

وكان يرسل لبعض الفُقراء المعتقدين الكسوة وغيرها، وربَّما قدِمَ عليه بعضُهم ويدفع إليه الشَّيء اليسير من المأكول كالحمص ونحوه، فيأخذه منه تبرُّكاً، ومرة أرسل لعياله مِنْ ذلك، وممَّن فعل معه ذلك الشيخ مُبارك، بل حكى لي السَّيدُ جلال الدين الجرواني النقيب أنَّ السَّبب كان في اعتقاده إياه أنه حضر إليه مرَّةً، فلم يلتفت شيخُنا إليه، بل أعرض عنه، فخرج وفهم منه شيخُنا التغيُّر. قال: وقدِّر أنَّه عزل بعد يسير، فأمر السيِّد أن يتلافى خاطر المشار إليه، فلم يزل يتتبَّعُه حتى أحضره إليه، فاستدرك شيخُنا ما كان فاته مِنَ الإحسان إليه، واعتذر عَنْ فعلِه السَّابق، حتى رضي ودعا ثم انصرف.

وبالجملة، فكان في ذلك متوسِّط الحال، غير مُفْرِطٍ ولا مُفَرِّطٍ. نعم، كان ينكر على كثيرٍ مِنْ مكشوفي العورات المتضمِّخين في النَّجاسات، الناهبين البضائع مِنَ الطُّرقات، المتلذذين بالشَّهوات ممَّن لم يُعْلَمْ صلاحه قبل هذه الحالات، ويقول: نصَّ أهلُ العِرفان مِنْ عُلماء الشأن على أنَّ مَنْ كان قبل طُروءِ مثل هذا على الكتاب والسُّنَّة، فهو واردٌ ربَّاني، وإلاَّ فهو شيطانيٌّ. ومَنْ يقدِرْ يُنازع في هذا. نسأل الله التوفيق. قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد فيما رويناه عنه: طريقُنا مضبوطٌ بالكتاب والسُّنَّة، من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولا يتفقَّه، لا يُقتدىٰ به.

ونقل صاحبُ «مجمع الأحباب»، وهو الشَّريف الواسطي، عن الموفق ابن قُدامة أنَّه سُئل عَنْ هؤلاء المعتوهين الذين تمرُّ بهم أوقات الصلوات ولا يُصلُّون، فقال: هؤلاء قومٌ سلبهُمُ الله ما سلبَ، ووهب لهم ما وهبَ، فأسقط عنهم ما وجبَ لمَّا سلب.

وكذا كان يجهر بالإنكار على ابن عربي ومَنْ نحا نحوه، ويحكي مقالته الشَّنيعة في تفسير قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ[1] أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥] ومذهبه القبيح في تفضيل الوليِّ على النَّبيِّ إذ يقول:

---

(١) في الأصول: «خطاياهم»، وهي قراءة أبي عمرو بن العلاء.

مـقـامُ الـنُّـبُـوَّة فـي بـرزخٍ فُـوَيْـقَ الـرَّسـول ودُون الـولـي

ويتعجَّبُ مِنَ الإقدام على مثل هذا، ويُبالغ في الحطِّ على مَنْ يعتقدُه أو ينظر في مقالته، ويمقتُه بسبب ذلك لفظاً وخطّاً، ويتوقَّفُ في الرِّواية عَنِ الدَّاعية منهم.

واتفق أنَّه قبل القرن باهلَ شخصاً متجوِّهاً مِنْ معتقديه، فما تمَّت السَّنَةُ حتَّى هلك ذاك، وكفى الله شرَّه، كما بيَّنْتُ القصَّة في «تصنيفي» المتعلق بابن عربي، بل وفي أوائل هذا الباب أيضاً[1]، أهلك الله تعالى أتباعه ومَنْ يعتقدُ مقالتَه.

وحكى لنا صاحبُ الترجمة، وأثبتهُ في «اللسان»[2] مِنْ تصانيفه: أنَّه سأل شيخَ الإسلام السِّراج البُلقيني عن ابن العربي، فبادر الجواب بأنه كافرٌ، وسأله عَنِ ابنِ الفارض، فقال: لا أحبُّ أن أتكلَّم فيه. قال: فقلت: فما الفرقُ بينهما والموضعُ واحدٌ، وأنشدتُه من التائية، فقطع عليَّ بعد إنشادِ عدَّة أبياتٍ بقوله: هذا كفر هذا كفر! انتهى.

وقد بلغني عَنْ بعض الثِّقات ممَّن أخذ عَنْ شيخنا أنَّه سمع صاحبَ التَّرجمة يقول: ثلاثةٌ أُلينَ لهم النَّظم كما أُلين لداود الحديد، وهم: الشَّاطبيُّ وابن الوردي وابن الفارض. انتهى.

وسمعتُه مراراً يقول عن ابن الوردي مما أثبته في ترجمته[3]: أقسم بالله لم ينظمْ أحدٌ بعده الفقه إلاَّ وقصر دونه.

وكذا سمعته يحكي ما رُزِقَهُ الشَّاطبيُّ مِنَ القَبُولِ في «لاميَّته» بحيث إنَّ أبا حيَّان رام مزاحمته في ذلك، فعمل قصيدةً سماها «عقد اللآلي في القراآت السبع العوالي» فصرَّح فيها بالقُرَّاءِ مِنْ غير رمزٍ، والتمس مِنْ ولدِه حفظها، فما أجابَ لذلك، وحفظ «الشَّاطبية».

---

(١) ص ١٠٠١ ـ ١٠٠٢.

(٢) ٤/٣١٨.

(٣) في الدرر الكامنة ٣/١٩٥.

[اتباعه للسنَّة:]

وأما اتباعه للسنة في جميع أحواله، فشيءٌ لا يُسألُ عنه، لأنَّها عنه تُؤخذ، ومنه تُعرَفُ، ويحرص بلسانه وقلمه على جذب الناس إليها، وتحذيرهم مِنْ مخالفتها، حتى كان يتأثَّر مِنْ تأخير الفِطْرِ وتقديم السَّحور، كما قدَّمته عند شيء من أقضيته مِنَ الباب الرَّابع[1].

وكذا من الزيادة في التَّكبير المشروع في العيدين، وقال في «فتح الباري»: وقد أُحدِثَ في هذا الزَّمان زيادةٌ فيه لا أصلَ لها.

إلى غير ذلك ممَّا يُعلَم مِنَ الكتاب المشار إليه، كقوله فيه: ولا أصل لما اعتاده كثيرٌ مِنَ النَّاس مِنَ استكمال قراءة الفاتحة بعد قوله: الحمد لله رب العالمين، يعني في العُطاس. وكذا العدول عن الحمد إلى: أشهدُ أن لا إله إلا الله، أو تقديمها على الحمد.

ويقول كما سمعتُه مراراً: هؤلاء العوامُّ يثابرُون على القيام دفعةً واحدةً بعد فراغ المؤذن مِنَ الأذان يوم الجمعة للصلاة، بحيثُ أخشى توهمهم وجوبها، مع أنه لم يرد قبل الجمعة بخصوصها سُنَّةٌ، وكان هو عندما يشرع المؤذِّن في الأذان، يثيبُ فيصلِّي أربعاً سنَّةَ الزَّوال، ويجيبُ المؤذِّنَ وهو في الصَّلاة إلاَّ في الحيعلتين.

[خوفه من الله:]

وأما خوفه من الله عز وجل ومحاسبتُه لنفسه، فأمرٌ يفوقُ الوصفَ. ونحوُه أنَّه ذكر يوماً القبرَ والموت، فقال: بينما المرءُ بين أهله وعشيرته الذين ألِفَهم وألفوه، إذِ انتقَلَ إلى مكان لم يألَفْ مثله قط [وجاءه مَنْ لم يره قط][2]، واسترسل في ذكر هذا المعنى، ثم صعق صعقةً مطربةً، ونهض إلى الصَّلاة.

---

(١) ص ٦٣٤.

(٢) ما بين قوسين ساقط من (أ)، وورد في هامش (ب، ح) بخط المصنف.

[جمعه بين العلم والعمل:]

وأما جمعه بين العلم والعمل، فقد علمته مفصلاً من هذا الكتاب، ولكن ليس الخبر كالعيان.

[برنامجه اليومي:]

وأما بيان طريقته في تقضِّي أوقاته، فكان رحمه الله يصلي الصُّبح في أوائل أمره بغلسٍ في الجامع الحاكم، ثم صار ـ لعلَّه بعد ولاية القضاء ـ يصلِّيه وقتَ الإسفار بالمدرسة المنكوتمرية، يجيءُ إليها مِنْ خلوته النَّافذة لمنزل سكنه، فإذا فرغَ مِنَ الصَّلاة، فإن كانت لأحدٍ حاجةٌ كلَّمه، ثم يدخلُ إلى منزله، فيشتغلُ بأذكار الصَّباح أو بالتِّلاوة، ثم يأخذُ في المطالعة والتَّصنيف إلى وقت صلاة الضُّحى، فيصليها، ثم إن كان بالباب مَنْ يستأذِنُ للقراءة، ظهر إليهم، فقرأ بعضُهم روايةً وبعضُهم درايةً، واستمر جالساً معهم إلى قريب الظُّهر، ثم يدخل إلى منزله فيستريح قدر ثُلث ساعة، ثم يقومُ فيصلِّي الظهر داخل بيته، ثم يُطالِعُ أو يصنِّفُ إلى بعد أذان العصر بنحو ثلثي ساعة أو أقل أو أكثر، فيظهر حينئذٍ إلى المدرسة، فيجدُ الطَّلبة وغيرهم في انتظاره، فيصلي بهم العصر، ثم يجلس للإقراء، ويكونُ حينئذٍ مَنْ له تصوُّفٌ قد انتهى، وإن سُبِقَ فيكون بشيءٍ يسيرٍ جداً، وهذا هو الباعثُ له على التَّأخير يسيراً، قصداً لعموم النفع، ومراعاةً لخاطر الطَّلبة.

وفي غضون قراءتهم عليه، وكذا في نوْبَةِ الصَّباح، يكتبُ على ما يجتمع عنده مِنَ الفتاوى الحديثية والفقهية، وربما دار بينه وبين الطَّلبة الكلام في بعضها، ولا ينتهي غالباً مِنْ هذه الجلسة إلاَّ عند الغُروب، فيدخُل إلى منزله، فإن لم يكن صائماً تعشَّى، وإلا انتظر الأذان، فيأكل ثم يصلِّي، ويتنفَّل أو يطالع إلى أن يسمع العشاء، فيقوم إلى المدرسة، فيجد جَمْعاً من الطلبة أيضاً في انتظاره، فيصلِّي ركعتين، ثم يجلس للقراءة غالباً، أو للمذاكرة أكثر مِنْ ساعة، ثم يقومُ فيصلِّي العشاء بالجماعة، ثم يدخلُ إلى بيته فيصلي سنة العشاء، فإذا كان رمضانُ وظهر أذانُ العشاء، أقيمت الصلاة بمجرد ظهوره، وتقدَّم الإمام المقرَّر للتراويح، وهو في مدة طويلة البدر

حسن بن عبد الله بن تقي المقرىء صهر الشمس بن الصائغ، القباني بفندق الموز، الذي ترجمه صاحبُ التَّرجمة في «الإنباء»[1]، ثم بعد وفاته - وهي في شوال سنة أربع وأربعين - نور الدِّين أبو محمد علي بن أحمد السَّمَنُّودي عم[2] إمام المدرسة الراتب أبي عبد القادر إبراهيم بن محمد بن أحمد السَّمَنُّودي.

وصليت به في بعض الليالي، فصلى العشاء ثمَّ التراويح، فإذا قام الإمام ليوتر، جلس هو غالباً يسبِّحُ إلى أن يفرغ، ثمَّ يدخُلُ إلى بيته، فينام، ثم يفعل ما ذكرتُه عند تهجُّده قريباً.

هذه وظيفته[3] في أكثر الأوقات. وأمَّا في أيام الدُّروس والولايات، فيختلُّ هذا النِّظامُ قليلاً، وكذا في رمضان، فإنَّه يصلِّي الصُّبحَ بالمدرسة على العادة، ثم يدخُلُ إلى منزله أو يمكُثُ في المحراب إلى طُلوع الشَّمس، فيجيء الجماعةُ لسماع الحديث، ويقرأ القارىءُ - وهو الشَّيخ برهان الدين بن خضر - ولم يقرأ بين يديه في هذا المجلس غيرُه إلاَّ سنةً كان فيها مجاوراً بمكة، فقرأ ابنُ سالم القطعة المسموعة من «صحيح ابن خزيمة»، وانتدب الشيخ شمس الدين بن قمر للرَّدِّ عليه.

ووقعت ظريفةٌ، وهو أنَّه ردَّ عليه لفظةً بسينٍ مهملة بعد أن قرأها بشينٍ معجمة، فقال له القارىءُ: فوقها ثلاثُ نقطٍ، كلُّ واحدةٍ بقدر عمامتك! أو كما قال.

وأمَّا بعد موته، فقرأ برهانُ الدِّين البقاعي سنة واحدةً، قرأ فيها نحو النِّصف مِنْ «مسند أبي يعلى»، وتوفي شيخنا قبل السنة الثانية، والقراءة تكون حصةً مِنْ «صحيح البخاري» تقع[4] فيها المباحثةُ، وتنتشرُ الفوائدُ النَّفيسةُ بين الطَّلبة، فإذا انتهى منها، شرع في قراءة باقي الحصَّة في شيء مِنْ كتب

---

(١) ٩/١٤٦.

(٢) في (ب): «ثم»، تحريف.

(٣) في (ب، ط): «طريقته».

(٤) في (ط): «تكون».

الحديث، ويقع حينئذٍ الإصغاءُ للسَّماع، ولا يتكلَّم إلا في النَّادر، وإن تكلَّم أحدٌ، أنصت القارئُ إن لم يسكت المتكلِّمُ، ويكونُ مجموعُ الحصتين أكثر مِنْ ساعتين، فإذا انتهى المجلسُ قام بإثره غالباً، ودخل إلى منزله.

فإن كان قاضياً ركب في ثلاثة أيام أو يومين مِنَ الأسبوع إلى مجلس الحديث بالقلعة بعد صلاة الظهر، ويرجع بعد أذان العصر.

وفي يوم الثلاثاء يركبُ مِنْ بيته عَقِبَ الشمس بساعة إلى الإملاء، فإذا فرغ، دخل إلى زوجته الحلبية. وكان مسكنُها بالبيبرسية، ثم نقلها بأخَرَة إلى غيرها، فيقيم عندها إلى أن يحضُر الخانقاه، ثم يرجع إلى بيته قريب الغُروب.

وفي يوم الأربعاء غالباً يحضُرُ أوَّل النَّهار جامع طُولون، ثم يرجعُ إلى المحمودية، فيقيم بها إلى قريب العصر يطالع ويصنِّفُ ويُقْرأ عليه، ثم يجيء[1] إلى المؤيَّديَّة.

وفي يوم الجمعة ـ إن كان قاضياً ـ ركب قبل الأذان بساعةٍ وثلثِ ساعةٍ أو أكثر قليلاً فيخطُبُ بالسُّلطان، ثم يرجِعُ إلى بيت الحلبيَّة، لا يصِلُ إليها غالباً في أكثر مِنْ هذين اليومين، وإن لم يكن قاضياً، فإن كان يتولَّى الخطابة[2] بنفسه في جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه، توجَّه قبل الوقت بساعتي رَمْلٍ، وإلاَّ توجَّه لجامع الحاكم بنحوِ مِنْ ساعةٍ، ويكونُ في الغالب إذا قصد جامع الحاكم ماشياً ومعهُ مِنَ النَّاس جمعٌ وافرٌ، ثم يركبُ مِنْ طريقٍ أخرى إلى أهله، وكان المتولي لإعلامه غالباً بدخول وقت تأهُّبِهِ يوم الجمعة الشَّيخ شرف الدين بن الخشَّاب، خدمةً له.

وفي أيام النيل ينتقل إلى بيته بالقُرب مِنْ جامع المقسِّي عند قنطرة باب البحر، ويهرع الطَّلبةُ وغيرهم له إلى هناك مُشاةً وركباناً بحسب مراتبهم، ولا ينفكُّ عن شهود الصبح والعصر والعشاء في جامع المقسِّي، ويعتمد في اللَّيل على عُكَّازٍ.

---

(١) في (ب، ط): «يرجع».

(٢) في (أ): «الحكاية»، تحريف.

وربما سكن أيام النِّيل قريباً مِنْ جامع البشيري، ويتوجه إليه الطلبة أيضاً هناك. وأسكَنَ الحلبيَّة في بعض الأوقات بجوار جامع سارُوجا.

وكانت أوقاتُه كلُّها مشحونةً بالعبادة؛ إمَّا بالعلم، أو الصَّلاة، أو التِّلاوة، أو الذكر، كما أسلفناه في أثناء الباب الثَّاني.

وقد رأيت الشيخ شمس الدين الصَّفْي ضَبَطَ حين كان يسمع عليه ليلاً ما قرأ بِهِ في العشاء في أسبوع، ففي يوم السبت: إذا زلزلت والعاديات، ويوم الأحد: والشمس والليل، ويوم الإثنين: والضحى وألم نشرح، ومرة: الأعلى والماعون، ويوم الثلاثاء: والسماء والطارق ولئيلاف قريش، ويوم الأربعاء: التكوير والانفطار، ويوم الخميس ليلة الجمعة: من أول الكهف إلى «رشداً» «أفحسب الذين كفروا»، إلى آخر السُّورة.

وأمَّا أنا، فسمعته يقرأ في الصبح مرَّةً بالقيامة والبلد، ومرة بالسَّجدة وهل أتى، وأخرى بالنَّبأ والنازعات، إلى غير ذلك.

قلت: وقد ورد في تعيين النَّظائر التي كان النَّبيُّ ﷺ يقرِن بينها بالدُّخان والتكوير، وبالذَّاريات والطُّور، وبالنَّجم والرَّحمٰن، وباقتربت والحاقَّة، وبالواقعة ونون، وبسأل والنَّازعات، وبالمدَّثِّر والمزمِّل، وبلا أقسم وهل أتى، وبالمرسلات والنبأ، وبعبس والمطفِّفين.

وكان يُسدلُ يديه في القيام يسيراً، ثم يجعلهما تحت صدره، وقال مرة: أنا أقرأ في ركعتين «مالك»، وفي ركعتين «ملِك»، وكأنَّه يروم بذلك الجمع بين المذهبين.

[أوصافه الخِلْقيَّة:]

وأما شيء من أوصافه؛ فكان رحمه الله تعالى ربعةً، أبيض اللَّونِ، منوَّرَ الصُّورة، كثَّ اللحية، حَسَن الشَّيبة، مليحَ الشَّكل، صحيح السَّمع والبصر، ثابت الأسنان نقيَّها، صغير الفم، قويَّ البُنْيَةِ، عالي الهِمَّة، خفيفَ

المشْيَةِ ولو عند إقباله على الملوك ونحوهم، وقيامهم له بمجرد وقوع بصرهم عليه، فإنَّه لا يزيدُ على المعتاد أيضاً، وربما نقم الأعداءُ عليه ذلك، ذا رشاقةٍ زائدةٍ، بحيثُ رأيتُه مرَّة توضأ مِنْ فِسقيَّةِ المنكوتمرية، فما رأيتُ أرشقَ منه في جلُوسه على الحجر واغترافه الماء، وصعدنا في خدمته قُبَيْلَ وفاته لعيادة الشَّيخ يحيى العجيسي بالنَّاصرية، فصار يصعدُ درجتين درجتين، ويقول: إنَّ ذلك أروحُ له.

هذا مع سكون ووقار وأبهة وثبات، تاركاً لما لا يعنيه، طارحاً للتكلُّف، كثيرَ الصَّمت إلا لضرُورة، شديد الحياء، لا يواجِهُ أحداً بمكرُوهٍ، مع الصَّدع بالحقِّ، وقوَّة النَّفس فيه، فاشياً للسَّلام [ما لم يكن تالياً][1] خفيف الوضوء في تمام، سريع عقد النِّيَّة، بل يعيبُ على مَنْ يتردَّد فيها، وكذا مَنْ يبالغ في إخراجِ الحروف بتقطيع الكلمة، ومَنْ يُكثِرُ صبَّ الماء في وضوئه، لا يتأنَّقُ في مأكله ومشربه، ولا في آنيته، بل مهما قدم له عياله مِنْ ذلك رضيَهُ، ولو كان صائماً لا يختصُّ عنهم بمزيدِ أمرٍ لنفسه، ويأكل العلقة منَ الطَّعام واليسير مِنَ الغذاء، لكنه كان يتقوَّىٰ بالسُّكَّر، ويميلُ إلى قصب السُّكَّر ميلاً قوياً، ويكثر النَّقْل، لا يزالُ بجانبه عُلبةٌ فيها شيءٌ كثير منه، بحيث يصعد إليها النَّمل وشبهه.

وسمعته يقول: أنا لا أشبعُ مِنْ أكل ألوان مختلفة، إنَّما أشبعُ مِنْ لونٍ واحدٍ. ونحو هذا قولُ بعض مَنْ أخذتُ عنه: إنَّما يشبع من ائتدم بالبطِّيخ والجبن بالمروءة.

وكذا كان لا يتأنَّقُ في الرَّفيع مِنَ الثِّياب، ومع ذلك فأموره كلُّها بهجةٌ نيِّرةٌ إلى الغاية، قصير الثِّياب، حسن العمَّة، ظريف العذبة. وبلغني أنَّه كان يُرخيها على كتفه قبل القضاء وبعد استقراره في مشيخة البيبرسية، ما رأيته لبس طيلساناً قطُّ سوىٰ مرةٍ واحدةٍ في مرض موته، فما رأيتُ أبهج منه فيه، وحكى لنا حينئذٍ حكايةً اقتضت منعه للُبسِهِ قدَّمناها في الباب الثاني[2].

---

(١) ما بين حاصرتين لم يرد في (ب)، وفي (ط): «قالياً».

(٢) ١/١٥٢.

وفي ظني أنَّه إنَّما تركه لعدم ورُود السُّنَّة به، بل في حديث ضعيف أورده الطَّبراني في ترجمة عبد الوارث من «الأوسط» عن أبي ذرٍّ، رفعه: «إذا اقترب الزَّمان، كثُر لُبْسُ الطَّيالِسَةِ». وفي «البخاري»[1] عن أبي عمران ـ هو الجَوْني ـ قال: نظر أنسٌ رضي الله عنه إلى النَّاس يومَ الجمعة، فرأى طيالِسَةً، فقال: كأنَّهمُ السَّاعة يهودُ خيبر، وفي لفظ لابن خُزيمة: أنَّ أنساً رضي الله عنه قال: ما شبَّهتُ النَّاس اليوم في المسجد وكَثْرَةِ الطَّيالِسَة إلا بيهود خيبر.

وهذا ظاهرٌ أن يهود خيبر كانوا يكثرون مِنْ لُبْسِ الطيالسة، وأنَّ غيرهم مِنَ النَّاس الذين شاهدهم أنسٌ رضي الله عنه كانوا لا يُكثرون منها، فلمَّا قدِمَ البصرة ورآهم يُكثرُون مِنْ لُبسها، شبَّههم بيهود خيبر، لكن هذا لا يلزَمُ منه كراهيةُ لبسِ الطَّيالسة. على أنَّه قيل: المراد بالطَّيالسة: الأكسيةُ، وقيل: إنَّما أنكر اصفرار لونِها[2].

وصحَّ مِنْ طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ. قال: «يتبعُ الدَّجَّال مِنْ يهودِ أصبهان سبعُون ألفاً عليهم الطَّيالسة»[3]. وهو عند الطبراني في «الأوسط» من حديث ربيعة عن أنس بلفظ «عليهم السِّيجان»، وهو جمع ساجٍ، وهو الطَّيلسان.

قال ابن الحاج في «المدخل»: فيكون ذلك تشبُّهاً بهم، وعن بعضهم أنَّه ريبةٌ بالليل ومذلَّةٌ بالنَّهار.

وقال بعضُ العلماء: إنه لا بأس بالطَّيلسان لمن يخرُج مِنْ حمَّام أو مَنْ يعرَقُ في بيتٍ أو خَلْوةٍ ثمَّ يُريدُ الخروج، ويخاف على نفسه مِنْ ضرر الهواء. وكأنه أخذه مِنْ قول مالك: إنَّه لا بأس بالتَّقنُّع مِنْ حرٍّ أو بردٍ.

قلت: وقد حكى ابنُ عبدِ البرِّ أنَّ أوَّل مَنْ لبِسَ الطَّيلسان بالمدينة

---

(١) برقم ٤٢٠٩.

(٢) من قوله: «وفي لفظ لابن خزيمة» إلى هنا، نقله المصنف بتصرف من كلام شيخه في «فتح الباري» ٧/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(٣) أخرجه مسلم برقم ٢٩٤٤ في الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال.

جُبَيْرُ بن مُطْعِم الصَّحابي، وصار شعاراً لقضاة الإسلام وعلماء الأنام، حتَّى ذكر[1] التاج السُّبكي أنَّه قال لأبيه التَّقيِّ رحمهما الله: أراك أيام المواكب السُّلطانية تَلبَسُ الطَّيلسان مواظباً عليه، مع كونك تقعد للحكم بثياب ما تساوي عشرين درهماً. فقال: إنَّ هذا صار شعارَ الشَّافعية، ولا أريدُ أن يُنسى، وأنا فما أنا مخلِّدٌ، سيجيء غيري ويلبسُه، فما أحدث عليه عادةً في تبطيله. انتهى.

وكيفيته ـ فيما صرَّح به بعضُ العلماء ـ أن يجعله على رأسه ويدير طَرَفَهُ على منكِبِه الأيسر، فيصير طرفُه الأول مرخًى على صدره من جهته اليسرىٰ والطَّرف الآخرُ على منكبه الأيسر مِنْ وراءِ ظهره. قال: وما يُفْعَلُ الآن مِنْ إدارته حول العُنُق، فبدعة. كذا قال.

ولأبي الحسن علي بن جابر بن عليٍّ الهاشمي:

قومٌ لهم سيرةٌ سارت بجهلِهِمُ ... قِد ارتَدَوا برداءِ الكِبْرِ والحُمُقِ

وخفَّت رؤوسُهم أو خفَّ عَقلُهُمُ ... لولا طيالِسَهم طارت مِنَ العُنُقِ

وكان شيخنا رحمه الله يقول: إن الطَّوق الذي يفعله المباشرون ونحوُهم نافعٌ جداً. قال: ولو كان يُمكِنُني فعله، ما تخلَّفت عنه.

قلت: لا سيما وبعضهم فسَّرَ قوله: «كلابس ثوبي زُورٍ» بمن يجعل في كُمِّه كمّاً آخر، يُوهِمُ أنَّ الثَّوبَ ثوبان، فإن الطَّوق نحوه.

لكن كان ربَّما جعل بَدَلَهُ في بعض الأحيان منديلاً لطيفاً يديرُه على رقبته.

وكذا كان لا يتأنَّقُ في ألفاظه، بل يعيبُ على مَنْ يتقعَّرُ في كلامه. قال مرَّة لمن تكلَّم معه وأمعن في ذلك: تكلَّم معي بالكلام المتعارَفِ، ولا تُقَعِّر.

---

(١) «ذكر» ساقطة من (أ).

وكذا كان الحسنُ بن أبي عبَّاد[1] ـ وهو إمام النحو في قُطْرِ اليمن في زمنه ـ إذا تكلَّم بين العامَّة لا يتكلَّفُ الإعراب، بحيثُ إذا سمعه مَنْ لا يعرِفُه مِنَ الفُقهاء يقول: ما عَرَفَ هذا مِنَ النَّحو شيئاً، فعاتبه بعضُ أصحابه في ذلك، فقال:

لعمرُك ما اللَّحْنُ مِنْ شيمتي ... ولا أنا مِنْ خطأ ألْحَنُ
ولكن عَرَفْتُ لغاتَ الرِّجالِ[2] ... فخاطبتُ كلاً بما يُحْسِنُ

ولأبي الطَّاهر محمد بن محمد بن محمد بن بنات الأنباري الكاتب:

إن شِئْتَ أن تُصْبِحَ بين الورىٰ ... ما بين ممقوت ومُغْتَابِ
فكُنْ عَبُوساً حين تلقاهُمُ ... وخاطِبِ القَوْمَ بإعرابِ

قلت: والمتعاني ذلك في مخاطباته مِنْ أكثر مَنْ رأيناه يكثُر خطأه. وقد قال عمَّار بن عبد الجبار: سمعتُ أبا عصمة ـ يعني نُوحَ بنَ يزيد الملقَّب بالجامع ـ يقول: ما أقبح اللَّحنَ مِنَ مُتَقَعِّرٍ. انتهى.

وكان رحمه الله ذا بصرٍ جيِّدٍ في تفصيل الثِّياب ونحوها، خبيراً بأمر دُنياه وآخرته، حتى كان قليلَ الرَّغبة في العمارة، بل وفي شراء العقار غالباً، وربما لام ولده على المبالغة في إنشاء الأماكن، ويقول له: إن كان ولا بدَّ، فالشِّراء، فيعتذِرُ له عَنْ عدم [وجدانه الثمن][3] دفعة واحدةً.

وسمعته غيرَ مرةٍ يقول: كلُّ مَنْ رأيناه مِنْ أعيان التُّجَّار وعظمائهم كانوا يُسَفِّهُون مَنْ يبني داراً أو يشتري عقاراً، إلاَّ أن يكون بثمنٍ بخس جداً بالنِّسبة لما صُرِفَ فيه، فإنَّ الدَّار التي تُساوي ألفَ دينار تُكرَى غالباً بنحو الأربعين ديناراً، وإذا أُدِيرَ هذا القدر في يد التَّاجر تزيد على أضعافِ ذلك،

---

(١) في (أ): «عياد» بالياء المثناة، تحريف. وهو الحسن بن إسحاق، أبو محمد اليمني، وأبو عباد كنية أبيه. بغية الوعاة ١/ ٥٠٠.

(٢) في «بغية الوعاة»: ولكنني قد عرفت الأنام.

(٣) ما بين حاصرتين ساقط من (ب).

وأرىٰ أنَّ امتحان مَنْ يمتحن منهم بذلك سببُه عدمُ إخراج الزَّكاة.

وسئل رحمه الله مرَّة: ماذا يكتب على حمله؛ ليتميز عن غيره على جاري العادة، فأجابه بديهة: (حم. عسق)، وأشار إلى أن حروفها مِنْ حروف اسمه ونَسَبِه.

وكان يحتال في المواطن التي يُؤخَذُ فيها المكس على الذَّهب ـ كإسكندرية ـ بأن يأمرَ بجعله في وعاءِ سَمْنٍ أو عسل أو نحو ذلك قبل وضع شيء فيه، ثم يختِمُ عليه بما يكونُ حائلاً بينه وبين ما يُوضَعُ فيه، ثم يملؤه بما يكون مناسباً للظَّرف، فلا يتفطَّن لذلك.

وكان رحمه الله قليل الدُّخول إلى الحمام، وإذا دخل تَنَوَّر، ولا يُطيلُ المُكْثَ بها، ويكون في خلوة غاية ما يكون مِنَ التَّستُّرِ، بل يكونُ بالمِئْزَر في حال اغتساله، وأظنُّه كان يغتسِلُ عند الحلبية في البيت.

وكان رحمه الله غالب الأوقات يجيئه الحلاَّقُ ـ وليس بمعيَّنٍ ـ إلى بيته، أو إلى المدرسة المحمودية. ودخل مرَّةً حماماً بعيدةً عن منزله، فجاءه البلاّنُ الذي في حمَّامه المعتاد، فتلطَّف في رَدِّه، وقال: أنتَ تختصُّ بحمَّامِكَ، وجماعةُ هذا المكان يختصُّون به، فلا تزاحمهم ولا يزاحموك.

وسمعته يحكي أنَّ الحلاَّق القليل الدُّرْبَة يُتعبِني مِنْ أجل كثرة إدارته لرأسي، ولو دار هو، لكان أسهل.

وكان هو رحمه الله يتولى قصَّ شاربه وأظفاره ونحو ذلك بنفسه، وله بكلِّ هذا خبرةٌ.

وكان رحمه الله في الغالب هو الذي يتولَّى صبَّ الماء على نفسه في الوضوء، وكذا في حمل الإبريق إلى الطَّهارة، لا سيَّما في اللَّيل، مع أنَّ عنده الكثير ممَّن يكفيه المؤنة في هذا كلِّه.

وكان رحمه الله يهيِّىء سَحُوره مِنَ العِشاء.

فهذه نُبْذَةٌ ممَّا شاهدته مِنْ أحواله، وعلمتُه من شريفِ خصاله، وهي كما قيل:

أخفُّ على رُوحٍ وأطيبُ مِنْ نَدَىٰ وأقصرُ في سَمْعِ الجَلِيسِ وأطْولاَ

تـخـالُ بـه بُـرْدَاً عَـلَـيْـكَ مـحـبَّـراً   فـتـحـسَـبُـه عِـقْـدَاً لَـدَيْـكَ مُـفَـصَّـلاً

وبالجملة، فما أعلمُ أنَّ عيني وقعت على أحسنَ مِنْ شمائله، ولا أضوأ منه، ولا أكثرَ هيبةً، ولا أحسنَ عِشْرَةً، ولا أرىٰ واحداً في النَّاس يُشبهُهُ، ولا أحاشي مِنَ الأقوام من أحدٍ، واللِّسانُ والبنان قاصران عن بثِّ وصفِه الأسنى، وشمائلِه الحُسنى.

سَلْ عنه وانطق به وانظُر إليه تَجِدْ   مِلْء الـمسـامِـعِ والأفـواهِ والـمُـقَـلِ

حـسـنـك لا تـنـقـضِـي عَـجَـائِـبُـهُ   فـالـبَـحْـرُ[1] حـدِّث عـنـه بـلا حَـرَجِ

ولم يخلُف بعد مثله شرقاً ولا غرباً، وما أحقَّه بقولِ مَنْ سَبَقَ:

حَـلَـفَ الـزَّمـان لـيـأتِـيَـنَّ بـمـثـلِـه   حَـنَـثَـتْ يـمـيـنُـك يـا زَمَـانُ فَـكَـفِّـرِ

وقولِ غيره:

عَـقِـمَ الـنِّـسَـاءُ فـلا يَـلِـدْنَ شَـبـيـهَـهُ   إنَّ الـزَّمـان بِـمِـثْـلـه لَـعَـقِـيـمُ

لــو طـابَ مَـوْلُـودٌ لـحـيٍّ مـثـلِـهِ   وَلَـدَ الـنِّـسـاءُ ومـا لـهُـنَّ قـوابِـلُ

وقولِ الآخر:

يا دهرُ بِعْ رُتَبَ العُلا مِنْ بَعْدِهِ[2]   بَـيْـعَ الـهَـوَانِ رَبِـحْـتَ أم لـم تَـرْبَـحِ

قَـدِّمْ وأخِّـرْ مَـنْ أردتَ مِـنَ الـورَىٰ   مات الَّذي قد كنت منه تَسْتَحي

وليس يعدُو النَّاظرُ في كتابي هذا أحد رجلين: إمَّا عارفٌ به ومخالطٌ له، فيقول: هذا مُقَصِّرٌ في مقالته، وربما يقول:

وما علَّمتني غير ما القلب عالمُه

(١) في (ح): «كالبحر».

(٢) في (ط): «الرياسة بعده»، وكتب تحتها: «في العلا ن»، إشارة إلى نسخة أخرى.

وقد يخالِفُ رأيُه رأيي في بعض ما أثبتُه، لكونه لم يقِفْ على السَّبب الذي لأجله أوردته[1].

وإما جاهل به أو حاسد، فيقولُ: هذه مبالغةٌ، بل ربَّما تكلَّف لردِّ بعضه، والأعمالُ بالنِّيَّات.

ولعمري قد فاتني مِمَّا لم أستحضِرْهُ حالة الكتابة أكثرُ ممَّا أثبتُّ، وكذا تعمدتُ تركَ أشياء لا يحتمِلُها مَنْ لم يرَهُ، وما أحقَّ المنكر بقول القائل:

نَظَرُوا بِعَيْنِ عَدَاوَةٍ وَلَوَ أَنَّها ... عينُ الرِّضا لاسْتَحْسَنُوا ما اسْتَقْبَحُوا
يُولُونَني شَرَرَ العُيونِ لأَنَّني ... غَلَّسْتُ في طَلَبِ العُلا وتَصَبَّحُوا

وقولِ الآخر:

ولستَ بِراءٍ عَيْبَ ذي الوُدِّ كُلِّه ... ولا بَعْضَ ما فيه إذا كنتَ راضِيا
وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيب كليلةٌ ... كما أن عَيْنَ السُّخْطِ تبدي المساوِيَا

وقولِ بعضهم:

ورُبَّ عَيَّابٍ لَه مَنْظَرٌ ... مشتمل الثَّوبِ على العَيْبِ

وأحلِفُ بالله: إنَّه لفَوْقَ ما وصفتُه، وإنِّي لناطقٌ بهذا، والظَّنُّ أني ما أنصفتُه، وأنَّ الغبيَّ سيظنُّ بي أمراً ما تصوَّرتُه.

وما عليَّ إذا ما قلتُ مُعْتَقِدِي ... دَعِ الجَهُولَ يَظُنُّ العَدْلَ عُدْوانا
واللَّهِ واللَّهِ العظيمِ ومَنْ ... أقامَهُ حُجَّةً لله بُرهانا
إنَّ الذي قُلْتُ بعضٌ مِنْ مناقِبِه ... ما زدتُ إلاَّ لَعلِّي زدتُ نُقْصَانا

غيره:

إنِّي وإنْ أوردتُ معنىً حازَهُ ... عِلْمِي لَقَدْ خَلَّفْتُ فيه مَعَاني

---

(١) في (ب، ط): «أثبته».

وأقول للمتَّقين ذوي الإنصاف، الذين دأبُهم لذوي الفضائل الاعتراف، مع التنويه بمحلّهم، والتَّواضع مع أقلّهم، لا لمن ظنَّ بغباوته وجهله ارتفاعه بالوقيعة في نَقَلَةِ العلم وأهلِه:

جزى الله خيراً مَنْ تأمَّل صنعتي ... وقابَلَ ما فيها مِنَ السَّهْوِ بالعَفْوِ
وأصلحَ ما أخطأتُ فيه بِفَضْلِهِ ... وفِطْنَتِه، وأستَغْفِرُ الله مِنْ سَهْوِ

والله المستعانُ، وعليه التُّكْلان، ونسألُه أن ينعِّمَه بالجِنان، في زُمْرَةِ سيِّدِ ولدِ عدنان، وأن يَعُمَّنا بالرَّحمة والغُفران، بمنِّه وكرمه[1].

(١) في هامش (ح) بخط المصنف: ثم بلغ الشيخ عبد العزيز بن فهد نفع الله به قراءة علي في ٢٥ والجماعة سماعاً.